# الفصل الأول

## مدرسة الإسكندرية :

## فلسفة الفعل عند أفلوطين بين العصر الإسلامي والعصر الحديث اتصال أم انقطاع ؟ *

* بحث مقدم إلى ندوة الجمعية الفلسفية المصرية – بكلية الآداب جامعة الإسكندرية " فـــي ندوة مدرسة الإسكندرية عبر العصور " سنة ١٩٩٤ م ، ونشر في مجلة الجمعية الفلسفية المصرية ، العدد الخامس ، ١٩٩٦ م .

# فلسفة الفعل عند أفلوطين بين العصر الإسلامي والعصر الحديث اتصال أم انقطاع؟

## أولاً : المقدمة :

يثير النظر في موضوع الندوة " تساؤلين أساسين : يدور الأول حول مصطلح مدرسة الإسكندرية ، ماذا تعنى كلمة مدرسة بالمعنى الفلسفي ؟ طبقاً لتعريف المعجم " تقال كلمة مدرسة بالمعنى الفلسفي على الملاسفة الذي ينادون بمذهب واحد " [1] ، وانطلاقا من هذا التعريف نخلص إلى أن مصطلح مدرسة بالمعنى الفلسفي يسمح بتجاوز التحديد المكاني إلى الأخذ بالتحديد المذهبي ، والأخذ بالتحديد المذهبي يرسى مشروعية تحديد الفكر الفلسفي لدى امونيوس ساكاس ( ١٧٥ - ٢٥٠.م ) ، وأفلوطين ( ٢٠٥ - ٢٧٠.م ).

وفرفوريوس ( ٢٣٣. ٣٠٥ .م ) وبرقلس ( ٤١٠ - ٤٨٥ .م ) باعتبارهم يمثلون مذهبا فلسفيا واحد بدأت منابعه الأول من أمونيوس ساكاس بالإسكندرية واكتمل نضجه في أفلوطين وتلاميذه ، ذلك المذهب هو الأفلاطونية المحدثة ، وأفلوطين قطبها البارز على نحو ما عبر عنها فى " التاسوعات " رغم أن مدرسته بالمعنى المكاني قد أسست فى روما . لكن نشأة المذهب تبدأ من امونيوس معلم أفلوطين وكانت تعاليمه سرية والتزم أفلوطين وعده لأستاذه بعدم الإعلان عن مذهبه ، وبالتالي كانت الإسكندرية بما تضمه من تعليم فلسفي هى مهد قيام هذا المذهب .

---

(١) مراد وهبه ، المعجم الفلسفي ، دار الثقافة الجديدة ، الطبعة الثالثة ، ص ٣٩٨ .

أمـــا التساؤل الثاني فيدور حول البعد الزمني في موضوع الندوة ، كما هـــو وراد في عبارة " عبر العصور " . وإن كانت الغاية المباشرة من البعد الزمنـــي هو تحديد محاور الندوة بين والوسيط والحديث إلا أنها عبارة تبعث علـــى التســـاؤل حول مدى الاتصال أو الانقطاع فى مدرسة الإسكندرية بين القديـــم والحديـــث ، وهذا ما آثرت أن يكون هو موضوع البحث المقدم لهذه الـــندوة تحـــت عـــنوان " فلسفة الفعل عند أفلوطين بين العصر الإسلامي ، والعصر الحديث اتصـــال أم انقطاع " ؟

والســـؤال الآن مـــاذا نقصد بالاتصال والانقطاع ؟ ما أعنيه بالاتصال ثلاثة أمور :

(أ) أن مضمون الفكر الفلسفي موضوع البحث يحتوى على جذور أو أسس ، اســـتمرت فـــى مســـار الفكر الإنساني ، ومن ثم فإن مضمون هذه الفلسفة يلتقي ومسار الفكر الإنساني .

(ب) ويعنى الاتصال أيضا أن التطور فى مسار الفكر يواكبه تطور آخر فى الأوضـــاع الاجتماعية والسياسية والثقافية ، أي أن التطور شامل لكل أبعاد الواقع .

(ج) ومن ثم فإن التواصل يعنى ثمة علاقة بين الفكر والواقع ، والواقع قادر علـــى استيعاب الفكر وتطويره ، ومن هنا يكون التواكب في التواصل بين تطور الفكر وتطور الواقع تواكبا جدليا .

أمـــا ما أعنيه بالانقطاع مؤشراته عديدة ، نفى الواقع للفكرة ورفضها ، وهذا النفي والرفض يعنى أمرين :

(أ) يعنى أن الفكرة قد تكون متجاوزة للواقع ، وأن الواقع في حالة حضارية متخلفة لا يسمح له باستيعاب الفكرة .

(ب) وقد يكون العكس فيكون الواقع فى مرحلة من التطور تتجاوز بمراحل مستوى الفكرة ، ومن ثم تنذوى الفكرة ويلفظها الواقع إذا كانت على النقيض من مسار التطور .

ولكن ليس من الضروري أن يكون الانقطاع تاما أو الاتصال تاما ، خاصة وإن كنا بصدد الحديث عن فلسفة كفلسفة أفوطين ، متعددة الجوانب والأبعاد وتحتمل العديد من التأويلات ، فقد يقبل الواقع بعدن جوانب الفيلسوف ويرفض الآخر بنظرة انتقائية يكون معيار القبول والرفض فيها مستفاد من الواقع . فإن كان الواقع متطور ينتقى من الفكر ما يجده دعامة للتطور أما إذا كان الواقع ساكنا متخلفا لا يتفاعل إلا مع الفكرة التي تبقيه في ثباته وتخلفه وجموده . وهنا يكون السؤال بصدد واقعنا العربي عامة والمصري خاصة فأي الجوانب من الأفلاطونية المحدثة تعرضت للانقطاع ، وأي الجوانب استمرت وتواصلت؟ ويظل السؤال حول الفكرة التي يأتي عليها الاتصال هل هى من الأفكار المحورية التي تعبر عن روح المذهب ومنهجيته ؟ أم أنها من الأفكار الهامشية ؟ إن كانت الأفكار المحورية يكون التواصل حقيقيا ، وإن كانت من الأفكار الهامشية يكون التواصل موضع نظر .

لذلك فإن محور الارتكاز فى البحث يدور على تحديد المحور الأساسي في فلسفة أفلوطين وتحديد الفكرة المحورية فى المذهب يجعل ثمة مشروعية للبحث عن الاتصال أو الانقطاع بين القديم والحديث فما هى تلك الفكرة ؟

## ثانيا : فلسفة الفعل عند أفلوطين :

### (أ) الفعل في إبداع الوجود عند أفلوطين :

#### ١- لماذا فلسفة الفعل في القرن ٣ . م :

يرادف أفلوطين بين " الواحد " و" الفعل المحض " [١] ، وبين الفعل الأول والعقل ، " فالفعل الأول هو العقل " [٢] ، ولم يأت هذا الترادف عفوا من أفلوطين ، بل كان عن هدف وغاية " ، حددتها مطالب العصر ، وهو عصر اضمحلال الإمبراطورية الرومانية فى القرن ٣ . م ، حيث انهارت الدول القديمة التي انطوت تحت لوائها ومنها مصر ، التي احتلها الرومان عام ٣٠ ق. م. ، وقد أدت التحولات السياسية في مختلف الدول التي خضعت للإمبراطورية إلى تزايد التناقضات الاجتماعية ومعاناة الجماهير ، وبؤسها ، وفترة الأزمات يلازمها دائما فى حياة الشعوب نزوع وتوجه نحو الدين ، وقد اجتاحت ديانات الشرق مختلف أرجاء الإمبراطورية ، وكان النزوع نحو الدين توجهاً عاماً بين الجماهير ، التماساً للعزاء والسلوى عن تردى الواقع وبؤس البشر. ومن ثم جاءت الأفلاطونية المحدثة كرؤية فلسفية لا لتبرر ذلك النزوع والتوجه الديني الذي يعم أرجاء الإمبراطورية ، بل لتقدم رؤية فلسفية جديدة أبعادها : الواحد ، والعقل ، والنفس ، والطبيعة ، والعالم المحسوس . وجوهر تلك الرؤية هو " الفعل " أو " العقل " ذلك أن

---

(١) إن الله سبحانه وتعالى أوجد إنيات الأشياء وصورها ، غير انه أوجد بعض الصور بغير توسط ، وبعضها بتوسط لأنه هو وحده حق بالفعل المحض ، فإذا فعل فإنما ينظر إلى ذاته فيفعل فعله دفعة واحدة . وأما العقل فإنه وإن كان بالفعل هو ما هو ، فإنه ينال قوته مما فوقه ، ويحرص أن يتشبه بالفاعل الأول المحض الذي هو فعل محض . أفلوطين عند العرب تحقيق د. عبد الرحمن بدوي ، دار النهضة العربية ، ص ٢١٠ ، وقد ذكرت نفس الفكرة أيضا في نفس الكتاب ص ٥١ .

(٢) أفلوطين ، أفلوطين عند العرب ، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي ، دار النهضة العربية ، ص ١٣٩ .

الواحد عند أفلوطين " فعل محض " وفعله العقل "، والعقل هو " الكلمة " [١] . " والكلمة هى الفعل " [٢]. والنفس فعل العقل ، والطبيعة فعل النفس ، والعالم المحسوس فعل الطبيعة والطبيعة هى " الكلمات العالية الفواعل " التي يعود مصدرها الأول إلى الكلمة الأولى إلى العقل . والكلمات الفواعل هى مبدأ الوجود والفعل في الأشياء . ولهذا كان هدف أفوطين من رسالته " عن الطبيعة والتأمل والواحد " هو الرد على ديمقريطس وأبيقور لاتخاذهما الذرات مبدأ وجود الأشياء وحركاتها ، بينما يجعل أفلوطين العقل أساس الوجود ومبدأ الفعل فى الأشياء ، على أي نحو كان الفعل اضطرار أم إرادة

ولما كان العقل هو أساس الوجود ومبدأ الفعل في الأشياء .. هنا يزول وجه الغرابة عن أقوال أفلوطين " أن كل الأشياء على اختلافها : الأرض والأشجار والنبات ... تتأمل ، والتأمل هو قوة الفعل فى الأشياء إرادة كان الفعل أو اضطرارا " [٣] .

والتأمل والفعل عند أفلوطين فى تلازم ، و التلازم مردود إلى طبيعة المبدأ الفاعل فى تشكيل الموجودات وإنتاجها ، وهو عند أفلوطين "مبدأ عقلي" إنه الطبيعة " والطبيعة كون وحياة . لهذا يقول أفلوطين : إن الطبيعة هى "الكلمة العقلية النفسانية التي تجرى في باطن الأشياء " ، وبها يكون الشيء فاعلاً لأنه في وجوده ذاته طبيعة تفعل . تلك الطبيعة هى الكلمات الفواعل هى العقل ، وعلى ذلك يكون الفعل أو العقل والهوية بينهما واضحة ، أساس وجود العالم وأساس تكوينه ووحدته .

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٢١٦ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٤٤ .

(3) Plotinus. Enneads, In Six Volumes, With An English Translation By·A.H. Armstrong, Ennead III. 8. On Nature And Contemplation And The One, London. Cambridge, Harvard University Press, .S.I, P.361.

لذلك فإن ما يهدف إليه أفلوطين من فلسفة الفعل ، فى عصر تدهور الإمبراطورية الرومانية هو أن ينوه بشكل غير مباشر عن معنى تدهور العالم وانحداره ، كي ينظر لإمكانية النهضة من جديد . إمكانية فعل الصعود والعودة إلى العقل . فالتكوين أو إبداع الوجود فعل وهو في طبيعته اضطرار . والنهضة والصعود فعل وهو فى طبيعته فعل " إرادي " يبقى أن التدهور يأتي من توجه الإنسان وانغماسه فيما هو أدنى من العقل ، فغياب العقل هو تداعى العالم وهو ما تعانى منه الإمبراطورية الرومانية ، ولا سبيل للخلاص إلا بالعودة إلى العقل ، والعودة فعل . فهل هو فعل الغوغاء ؟ أم الطبقة الوسطى ؟ أم إنه فعل الصفوة الفضلاء ؟ إنه عند أفلوطين فعل الصفوة ، وفعلها هو حكم العقل ، حكم الأرستقراطية [1]. ومن ينفك عنه العقل مصيره إلى زوال .

إن أهم ما فى فلسفة الفعل عند أفوطين رغم الشكل المثالي الذي تطرح وتقدم فيه أنه يقر موضوعية الفعل . ففعل أي شيء من الأشياء أو الموجودات منسوب إلى ذاته أي طبيعته ووجوده لا إلى آخر غيره .

مهما كان هذا الأخر له تأثير فيه ، أو كان له فاعليه عليه . فما أن وجد الشيء وتحقق صار الفعل الصادر عنه فعله ، لان المبادئ العقلية أو الكلمات العالية الفواعل متى أصبحت في الجسم صارت هى طبيعته التي لا يمكن أن تنفصل عنه وهو بها فاعل ، ويتضح ذلك حتى فى " أبسط العناصر الطبيعية أو الاسطقسات فلكل واحد منها حركة وطبيعة تخصه وبها قوامه فحياة النار الحرارة واليبس ، وبذلك بقاء ذاتها ، وفعلها الإحراق والتسخين والإنضاج وسائر ما تبع ذلك . فتكون هذه الأفعال كلها بمنزلة النتيجة الكائنة عن ذواتها

(١) أفلوطين ، التساعية الرابعة ، في النفس ، ترجمة د. فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة في التأليف والنشر ١٩٧٠ ، ص ٢٣٨ .

، وعـن صورتها التي تحفظ ذاتها ، وكذلك لسائر العناصر ، لكل واحد هذه النسـبة ، وله صورة هى ذاته ، وحركة تحفظ ذاته وفعل في غير هو نتيجة ذاته. وذلك هو الحال في المركبات عن المعادن والنباتات والحيوان " (١).

وعلى هذا نقول أن إقرار الفعل على المستوى الطبيعي والكوني ، يسمح بإقرار موضوعيته على المستوى الإنساني والاجتماعي ، فيكون فعل الإنسان عـند أفلوطين مرهونا بإرادته واختياره وبفعله قادرا إما على تحقيق إصلاح العالم وسعادة البشر ، أو تداعي العالم وتعاسة البشر .

**٢- الفعل مبدأ شامل كل ما في الوجود :**

الفعل مبدأ شامل لا ينفك عنه عنصر من عناصر الوجود . فمن أسمى الموجـودات إلى أخسها ، ومن معقولها إلى محسوسها . لا وجود له إلا فى الفعل ، وبالفعل لأن الفعل هو العقل هو المبدأ أو الطبيعة الفاعلة في الأشياء . فكما أن الواحد " فعل محض " فإن أدنى الكائنات الطبيعية تفعل ، وإن كان فعلها لا يظهر لنا مباشرة لدقته وضعفه . فالفعل ضرورة شاملة وهو مبعث دينامـية الوجـود وتطوره ولا نهائيته . وعندما يصبح الفعل مبدأ الوجود ، ويولّد الفعل مفعولا والمفعول يفعل فيصير فعلاً فاعلا ، فيولّد مفعولاً جديداً ، وهكذا يستمر التسلسل والتطور فى مستويات الوجود ، وما هى إلا مستويات من الفعل". لذلك يقول " أفلوطين " ليس شيء من الأشياء العقلية ولا الطبيعية يقف فى ذاته ولا يسلك مسلك الفعل ، إلا أن يكون الشيء آخر الأشياء ضعفاً لا يكـد فعله يتبين . والدليل على أن الأشياء الطبيعية لا يمكن أن تقف ولا تسـلك مسـلك الفعل البذر الذي يستودع بطن الأرض . فإن البذر يبدأ من مكان لا قدر له ولا وزن له كأنه شيء روحاني ليس بجرم ، فلا يزال يسلك

(١) أفلوطين ، أفلوطين عند العرب ، ص ٢٢٥ .

مسلك الفعل حتى يخرج من ذاته ، وذلك أنه فعل فعله وصور صورته فهو كائن فى تلك الصورة، راجع إلى ذاته قائم على أن يفعل مثل تلك الصورة مرارا كثيرة . لأنه فيه الكلمات العالية الفواعل لأزقة لا مفارقة ، إلا أنها خفية لا تقع تحت أبصارنا ، فإذا فعل فعله ، ووقع تحت أبصارنا بانت قوته العظيمة العجيبة التي لم يكن الواجب أن تقف في ذاتها ولا تسلك مسلك الكون والفعل " (١).

لذلك كل ما يحتويه الكون أو يطويه الوجود من موجودات معقولة ومحسوسة ، إنسان أو نبات أو حيوان أو طبيعة أو أجرام ، أو نفس أو عقل هى مستويات من الفعل : معقول ومحسوس ، ثابت ومتغير ، ساكن ومتحرك . فالفعل الأول هو العقل فاض من شدة سكون الفاعل وقوته .

وصور النفس والطبيعة والعالم المحسوس أبدعها العقل وهو ساكن أيضا لا يتحرك ، لما كانت النفس معلولة من معلول جاء فعلها بحركة ، والحركة لا تأتى بالشيء الثابت الدائم بل بالمتغير الزائل ، فأبدعت الحس والطبيعة التي في الأجرام المبسوطة والنبات والحيوان وكل جوهر " (٢).

وما كان هبوط النفس إلى العالم المحسوس إلا هبوط اشتياق إلى الفعل " هبطت إلى العالم السفلي لتظهر أفعالها وقوتها الكريمة ، وهذا لازم لكل طبيعة أن تفعل أفاعيلها وتؤثر فى الشيء الذي يكون تحتها ، وأن الشيء ينفعل ويقبل الآثار من الشيء الذي يليه علوّا ، وذلك أن الشيء الأعلى يؤثر فى الشيءِ الذي هو أسفل " (٣) .

---

(١) أفلوطين ، أفلوطين عند العرب ، ص ٨٥ - ٨٦ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

### ٣- طبيعة الفعل فى إبداع الوجود :

الفعل عند أفلوطين على نحوين : اضطراري وإرادي ، والفعل الإرادي هو نمط الفعل فى إصلاح الوجود ، بينما الفعل الاضطراري هو نمط الفعل فى إبداع الوجود مهما تعددت أشكال الفعل بتعدد مصادره من تصور للعقل أو طبيعة للنفس أو توالد وتناسل للعالم المحسوس . فالفعل في طبيعته اضطرار ، أو ضرورة محتومة ومبدأ طبيعي ، وأن يكون الفعل ضرورة محتومة ومبدأ طبيعيا يعنى أن الشيء سواء كان ينتمي إلى العالم المعقول أو العالم المحسوس أن فى وجوده ذاته طبيعة تفعل . تلك الطبيعة هى التي يسميها أفلوطين " الكلمات العالية الفواعل " أو " المبادئ البذرية التكوينية " ، والعقل هو مصدرها ، ويمتد وجودها فى تسلسل هابط من العقل إلى النفس إلى العالم المحسوس حتى أدنى الكائنات الحسية .

والكلمة كما براها أفلوطين هى الفعل ، " والفعل الأول هو العقل " [١] ، " والعقل من الينبوع الأول والكلمة شيء واحد " [٢] ، ومن تلك الكلمة تنبعث سائر الكلمات الممتدة فى سائر العالم المعقول والمحسوس ، وأولها النفس ، " والنفس ذات كلمة ما من أنواع الكلم ، وإنما أعنى بالكلمة الفعل ، أن للنفس فعلا من أنواع الفعل " [٣]. وفعلها الطبيعة أي الكلمات الفواعل ، "كون" الأشياء في العالم المحسوس " فالبذر والحبوب وزروع الحيوان في كل شخص منها كلمة ، لها أنفس وكلمات فواعل لما يظهر من اختلافات أفاعيلها ، وليس بعجب أن تكون لهذه كلها كلمات لأن الكلمات الفواعل ، إنما هى

---

(١) أفلوطين ، أفلوطين عند العرب ، ص ١٣٩ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢١٦ .

(٣) نفس المصدر السابق ص ١٤٤ .

أفعـــال الـــنفس ، فإن كانت النفس فيها الكلمات الفعالة ، فهذه الكلمات تفعل الهيئات ، والنطق وسائر الأنفس الطبيعية " (١).

معـــنى هذا أن الكلمات الفواعل هي الطبيعة العاقلة الباطنة في الأشياء والنـــبات والحـــيوان والأجرام وكل جوهر. إنها الكلمة العقلية النفسانية التي تجـــرى فـــي باطن الأشياء . إنها الفعل والفعل طبيعة ، فالشيء أن وجد هو بالضـــرورة فعـــل ، وهو بدوره لا بد يفعل ، لأن الفعل هو طبيعته الباطنة ومـــبدأه الطبيعي ، ولهذا فإن الأشياء فاعلة ضرورة واضطرارا " فالعالم لا يجـــرى بالبخت والاتفاق ، بل إنما يجرى بكلمة نفسانية عقلية بغاية الحزم والتدبير " (٢).

لهـــذا يعـــترض أفلوطيـــن على ديمقريطس وابيقور لاتخاذهما المبادئ الجســـمية أو الذرات أسباب ومبادئ الأشياء وحركاتها وتفاعلاتها ، إلى حد عللـــوا دوافـــع الإنسان وميوله الخاصة بالذرات كما ردوا إليها نظام الكون وحركـــته ، وذلـــك محال عند أفلوطين ، ووجه الاستحالة مردود إلى طبيعة حركة الذوات ذلك أنها لا تتحرك حركة منتظمة بل قد تتحرك إلى أسفل ، أو تـــنحرف في حركة جانبية مصادفة واتفاقا ، ومن ثم يمتنع النظام ، والنظام عند أفلوطين يرجع إلى الكلمات العالية الفواعل ، أو المبادئ البذرية التكوينية ، وهى علل الأشياء وروابطها في تسلسل منتظم وتراكم محكم "(٣).

وإلـــى جانب الكلمات الفواعل توجد أيضا النفس فهي المبدأ الثاني الذي يحفـــظ الـــنظام فـــي الكون وهى وليست فقط النفس الكلية ، بل أيضا النفس

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٢٢٤ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٢٧ .

(3) Plotinus, Enneads, III.1,on Destiny, With An English Translation By A. H. Armstrong, London, Camridge, Harvard University Press p.11,29

الفردية هى مبدأ له أهمية كبيرة في نسخ ترابط الأشياء ، دقة وأحكاما " [٤] ، ولهـذا النفس فاعلة وفعلها الطبيعة أي الكلمات الفواعل ، "كون" الأشياء في العـالم المحسـوس . والعالم كائن حي واحد ، تحتم الضرورة أن يكون فى تعاطف مع ذاته ، وتسير حياته وفقاً للعقل ، وليس في حياته تخبط أو اتفاق ، بل يسود هذه الحياة انسجام واحد . وتتبع ترتيبا وفقا لنظام ثابت وهدف واحد هو هدف الإرادة الكونية " [١] هو الضرورة التي تجرى وتسير العوالم الثلاثة ( العـالم الروحاني ، والعالم الجرمي ، وعالم الكون ) وفقا لها ، فلا وجود للصـدفة أو الاتفـاق ، بل لكل معلول علة و أول العلل هو أول الأوائل أي الواحـد مؤثر لا يتأثر ، وأخر الأشياء أثر لا يؤثر وما بينها مؤثر ومؤثر ، مؤثر فيما تحته ومتأثر مما فوقه . وكل الآثار معلق على الفعل الأول ، وهو العقـل ، والعقـل معلق على الفاعل الأول ، والفاعل الأول هو مبدعها كلها وحافظهـا إلا أنـه مـبدع بعضها بلا توسيط وبعضها بتوسط " [٢] ، فالعقل وسـيط بيـن الواحد والنفس والنفس وسيطة بين العقل والطبيعة ، والطبيعة وسيط بين النفس والعالم المحسوس .

فهـذه الوسـائط تؤدى دور العلة من جانب والمعلول من جانب آخر . وهذا يعنى أن افلوطين يقر موضوعية العلية ، حتى وإن كانت هذه العلية لها ينـبوع روحـي أول ، إلا أنها كلما امتدت فى عنصر من عناصر الوجود صارت هي طبيعته ، وتلك من أهم أشكالات فلسفة الفعل التى سنجد ظلالها فـى الفلسفة الإسلامية بالإيجاب والسلب بين الفارابي وابن سينا من جانب ، وأبي حامد الغزالي من جانب آخر .

---

(4) Ibid, p. 13.

(١) أفلوطين ، أفلوطين عند العرب ، ص ٣٩٢ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

## ٤- أشكال الفعـل فى إبداع الوجود :

### ** فعـل الواحـد :

تحديـد الفعـل عند افلوطين بأنه ضرورة واضطرار لايتناقض مع رؤيـة افلوطين " للواحد " أو " الأول " أو " الخير " " أو " الله " ، وهو عند افلوطيـن " فعل محض " ويسلب افلوطين عن الواحد كل تصور عدا كونه " فعـل محـض " والسلب لازم ، لأن الواحد كما يراه افلوطين مجاوز لدائر الوجـود ودائـر المعرفة ، " لا هو العقل ولا هو المعقول ... لأن العقل يصـاحبه معقولهُ ملازم له " [١] والواحد مجاوز لكل ما هو طبيعي وإنساني مجاوز لكل عقل ، لا يحده حد ومستحيل على الوصف إلا بطريق السلب .

وقـول افلوطين أننا نستطيع أن نمسك بالأول الذى تتعالى طبيعته عن العقـل عن طريق المشابهة أو المماثلة بأنفسنا . ذلك أننا نعرف العقل بنوع من الحدس البسيط ، وبالمماثلة والمشابهة ، يمكن أن نفهم الأول بشكل قلبي ونعـرفه بـالحدس ونرى عظمته بكل الأشياء [٢]. ولكن المماثلة والمشابهة تجعل القول بالحدس لا يغير من الأمر شيئا ، فما زال الواحد مجاوزا للعقل والوجـود ولا سـبيل إلـيه سـوى المماثلة والمشابهة من خلال الحدس ، فالحضور القلبى للواحد هو حضور فى حدود الشاهد ولا تجاوز ، لذلك يظل الواحد مجاوزا لكل عقل ولكل واقع .

وينبهـنا افلوطين إلى أننا ينبغي أن نحاذر من الوقوع في خطأ الاعتقاد بـأن هـذه المحمولات : الأول أو الواحد أو الخير صفات موجبة أو صور

(1) Plotinus, Ennead, III. 8. on Nature and Contemplation, and The One, S.P. 391.
(2) IBid, S-10 p. 397.

للواحد ، فهي تعابير عنه . إضافة إلى الأقانيم التابعة ، فهو أول باعتباره سابقا على كل موجود آخر ، وهو خير بصفته غاية ، غير أن هذه التعابير لا تعين ماهيته لأنه بحصر المعنى ليس شيئا ولا حتى واحدا أو خيراً ، إنما هو فقط عدم مترفع عن الماهية " [١]. مترفع عن الوجود ولا يوجد فى شيء من الأشياء إلا بنوع علة " [٢]. أى بنوع ، فعل أنه " فعل محض " وفعله ليس خلقا بل فيضا، والفيض نمط من الفعل الطبيعى الضروري ، متى كان صادرا عن الواحد كان " قدرة " لا فعل إرادة أو روية ولا حركة ولا إرادة مائلة إلى المفعول " [٣]. فأفلوطين يريد الفيض فعلاً طبيعياً مطلقاً من قيود الزمان لا يتقيد بإرادة أو بعلم، " لأن الفعل الذي يصدر بعد روية لا يكون فعلاً طبيعياً " [٤]. " ولا يمكن أن يقال أن البارى روى فى الأشياء كيف يبدعها ، ثم أبدعها ، لأن الأشياء التي يروى فيها لا تخلو أن تكون خارجة عنه أو داخله فيه . فإن كانت خارجة عنه فقد كانت موجودة قبل أن يبدعها وإن كانت داخلة فيه فإما أن تكون غيره ، وإما أن تكون هو بعينه ، فإن كانت هى هو بعينه لم يحتج فى خلق الأشياء إلى روية لأنه هو الأشياء بأنه علة لها " [٥]. لذلك يؤكد مراراً أن كل ما كان بعد الأول فهو من الأول اضطراراً " [٦].

والاضطرار يعنى أن الفاعل الأول لا يتقدم فعله إرادة لأنه يفعل بإنه فقط ، ذلك لأنه لم يرد أن يبدع العقل ثم كان العقل بعد الإرادة .. ولو كان

---

(١) أفلوطين ، أفلوطين عند العرب ، ص ٢٤٧ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٨٥ .

(٣) نفس المصدر السابق ص ١٨٤ .

(٤) أفلوطين التساعية الرابعة ، ترجمة فؤاد زكريا .

(٥) أفلوطين ، أفلوطين عند العرب ص ٢٢٧ .

(٦) نفس المصدر السابق ص ١٧٨ .

كذلك وكانت الإرادة تتقدم فعله لكان ناقصا ، إذ كانت الإرادة بينه وبين مفعوله . ولا ينتقل من فعله بعض الأشياء إلى فعل بعضها لكنه فعل الأشياء وابتدعها دفعة واحدة [١]. بلا تقسيم أي لم يبدعها واحد بعد واحد ، لكنه يبدعها دفعة واحدة . وكأنها شئ واحد ، وعلة ذلك أن العلة الثانية " فعل والعلة الأولى " قدرة "والفعل لا يقع إلا وقوعا متجزئا ، أي لم يفعل إلا فعلا متجزئا ، وأما القدرة فهي القوة التي تقوى على إبداع الأشياء كلها دفعة واحدة وكأنها شيء واحد " [٢].

**** فعل العقل :**

والعقل فاعل " بالناموس المضطر" الذي جبله فيه المبدع الأول " [٣] ، وذلك الناموس هو "الكلمة" والكلمة فعل ، والعقل والكلمة شئ واحد ، والعقل فعل " فالعقل ولا بد فاعل وفعلة النفس وصور الطبيعة والعالم المحسوس . فالأشياء كلها مصورة فى العقل من غير أن تكون مصورة في العلة الأولى " [٤] . " فالعقل هو الأشياء كلها ، إلا أنه بنوع كلى ، فإذا عقل الأشياء كلها ، وإذا ألقى بصره على ذاته يكون قد أحاط بجميع الأشياء التى دونه ، وهو ساكن ثابت لا يتحرك ، لأن جميع ما يكتمل به فيه وعنده " [٥]. لذلك يظل العقل فى هوية مع ذاته لا يتغير . ويظل على الدوام فى العالم الأعلى ويبعث بتأثيره وفعله إلى الأشياء الدنيوية بتوسيط النفس .

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٧٤ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٧٧ .

(٣) أفلوطين ، أفلوطين عند العرب ، ص ٨٩ .

(٤) نفس المصدر السابق .

(٥) نفس المصدر السابق ، ص ٢٠٩ ، وذلك يقوله أفلوطين أيضا فى :
- On Nature and Contemplation and The One S. 10, P. 389

العقـل فاعل وبين العقل وفعله الإرادة ، إنه يريد ثم يفعل لأنه لا يفعل بإنيـته ، لكـنه يفعل بأنه عقل والعقل عالم ، والعالم مريد ، وذلك أنه يريد الشـيء فيشتاق إلى علمه " [١]. وعلمه قانون كلى " هذا القانون الكلى كامن فـي كـل فرد من الأفراد ، " أي النفوس الفردية " وهو لا يستمد القوة على تنفيذه إلا من الأفراد ، وقد وهب العقل للأفراد ليستخدمه كل منهم ويحمله فى ذاته ، فإذا ما حان الوقت جاءت إرادته بفضل النفوس الفردية التي تمتلكه في ذاتهـا ، فتلك النفوس ذاتها هى التى تنفذ القانون ، لأنها تحمله في ذاتها .. ولأن هـذا القانون الذى غرز فيها يثقل عليها - على نحو ما - ويبعث فيها الرغـبة الدافعة فى أن تذهب حيث قدر لها أن تذهب " [٢] ، فيكون هبوطها إلى العالم المحسوس . لتنقل تلك الصورة أو القانون الكلى إلى الأشياء الأدنى منها فى العالم المحسوس .

وقـوام هـذا القانون الكلى الذى ينتظم كل المجودات ، وتخضع له كل الخضوع هو الذى يسمى " المبادئ البذرية التكوينية " [٣] أو الكلمات العالية الفواعـل " أو " الطبيعة " [٤] الصادرة عن العالم المعقول والتى هى علل كل الكائـنات ، وعلل حركات النفوس وقوانينها . وهو ينتظم كل ما يصدر عن ذلـك العـالم ويربطه بأصله ، ويكفل عدم فناء كل ما يمكنه أن يحتفظ بذاته مطابقا . لأنموذجه العقلى ويدفع الأشياء إلى حيث تسمح طبيعتها بالتوجه . وهو الذى يؤدى إلى أن تتخذ كل نفس عند هبوطها موضعا خاصا " [٥].

---

(١) أفلوطين عند العرب ، ص ١٧٤ .

(٢) أفلوطيـن ، التساعية الرابعة ، في النفس . ترجمة د. فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ ، ص ١٩٦ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

(٤) أفلوطين أفلوطين عند العرب ، ص ٨٨ .

(٥) أفلوطين ، التساعية الرابعة في النفس ، ص ١٩٧ .

**** فعـل النفـس :**

الـنفس فاعلـة وفعلها الطبيعة والعالم المحسوس والإنسان والحيوان والنبات والإجرام وكل جوهر . فالنفس تفيض قوتها على العالم كله ، وليس شـيء مـن الأشياء الحسية متحرك أو ساكن بعادم لقوة النفس . وأول فعل تفعـل النفس أنما تفعله فى الهيولى لأن الهيولى هى أول الأشياء الحسية ، " ولمـا قبلت الهيولى الصورة من النفس حدثت الطبيعة . ثم صورت الطبيعة وصيرتها قابلة للكون اضطرارا ، وصارت الطبيعة قابلة للكون لما جعل فيها من القوة النفسانية والعلل العالية " أي الكلمات العالية الفواعل " أو " المبادئ الـبذرية التكوينية " ، ثم وقف فعل العقل عند الطبيعة ومبدأ الكون ، فالكون أخـر العلل العقلية المصورة وأول العلل المكونة [1] بفضل ما فاضت النفس علـى الهـيولى من " الكلمات العالية الفواعل "، فكانت الطبيعة ، وبالطبيعة كـون كل الأشياء الحسية ، والنبات والحيوان والإنسان وكل جوهر وجرم . لذلك يقول افلوطين أن الأشياء الحسية كي تبقى وتدوم دوامها وبقاؤها رهن الطبيعة أي بالكون والتناسل .

وهبوط صور النفس إلى الأجسام ليس أمرا اختياريا وليس ، قسرا ، بل هو ضرورة محتومة .. ومبدأ طبيعي يأمر كل نفس بأن تتوجه تبعا لمرتبتها نحـو الصور المتولدة التى تشكلت تبعا لمشيئتها الخاصة وتركيبها الباطن ، وكل النفوس من هذا النوع توجد بقرب الشيء الذي يتجه ميلها الطبيعي إليه . فهـى ليست فى حاجة إلى كائن يرسلها ويدفعها فى اللحظة المنشودة حتى تدخل جسماً معيناً ، بل إن هذه اللحظة إذا ما حانت هبطت النفس إليه تلقائياً ودخلت حيث ينبغي عليها أن تدخل وتلك اللحظة أذن ينبغي عليها أن تدخل . وتلـك اللحظة تختلف من نفس إلى أخرى ، ولكنها إذا ما حانت هبطت إلى

---

[1] أفلوطين عند العرب ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

الجسم الملائم لها . وكأنها تستجيب لدعوة داع ، حتى ليظن أن قدرة سحرية قد حركتها وجذبتها بقوة لا تقاوم " [١].

وتلك القوة هى قوة الضرورة ، قوة الكلمات الفواعل التى تثقل على النفس وتدفعها إلى الجسم والفعل فيه ، وفعلها طبيعة أى تشكيل وتكوين وحياة .

والطبيعة كما يقول افلوطين " هى مبدأ التشكيل أو مبدأ التكوين في الشكل المرئي " [٢]. وذلك هو فعلها ، والشيء المتكون أو المتشكل يبدو ميتا ، ولا يغدو قادرا على صناعة شيء آخر أو توليد شيء آخر إلا بفضل الحياة ، فالحياة هى أخ لمبدأ التشكيل والتكوين ، له نفس القوة ذاتها وينتج بها ما ينبثق موجود " [٣]. ولكن هذا لا يعنى أن الحياة مبدأ مغاير للطبيعة لأن افلوطين يقول " ما اسميه طبيعة هو طبيعة النفس ، نتاج النفس الأولية أو نسل النفس الأولية بحياة أقوى " [٤]. فالكون والحياة طبيعة ، والطبيعة موجبة الفعل بالنسبة للمادة فهي مبدأ الحركة والفعل في كل موجود في العالم المحسوس .

** فعل العالم المحسوس :

والعالم المحسوس هو عالم المركبات من المعادن ، والنبات والحيوان ، والإنسان . وهو عالم الكون والفساد والنمو والاضمحلال ، " فالأشياء الحسية لكي تبقى وتدوم شبها بالأشياء العقلية الثابتة ، فان قوامها ودوامها هو بالطبيعة أي بالكون والتناسل " [٥]. فالكون والتناسل هو شكل الفعل فى العالم

---

(١) أفلوطين ، التساعية الرابعة فى النفس ، ص ١٩٥ .

(2) Plotinus, On Nature and Contemplation and The One, P. 367.

(3) Ibid, P.367.

(4) Ibid, P. 369.

(٥) أفلوطين ، أفلوطين عند العرب ، ص ٨٧ .

المحسوس، وبه يكون العالم ثابتا دائما في الوجود .

والكون والتناسل يقتضي من الموجود حركتين ، حركة بها يأخذ وينمو أي يلتقح ، وحركة بها يعطى وينتج ، حركة نمو وحركة ولادة ، والعالم الحسي عالم حي ، وهو أنموذج للعالم العقلي ، والنفس يمنع ما هى من الفساد والاستحالة . ولهذا صار الحيوان والنبات لا يمكن أن يتغذى به ما دمت فيه حياة ، لأن النفس التي فيه تمنعه أن يحيله المغتذي إليه . فإذا فارقته النفس بالذبح وغيره قويت القوة الغازية عليه فأحالته حينئذ إلى جوهر المغتذى ولذلك من ابتلع حيوانا فإنه لا يتغذى به حتى يموت " [1]. وكل ما هو موجود سوى العلة الأولى له غذاء يليق به وقوة بسببها يقوى ، فالأجسام الكونية من النبات والحيوان أغذيتها أجسام ، والأجسام السماوية غذاؤها الحركة المتصلة الصادرة عن تصور عقلي والنفس لها غذاء من تأمل العقل ، والعقل غذاؤه النظر إلى مبدعه ... وكل مغتذ له فضلة تبرز عنه ، إن كان غذاؤه جسما فالفضلة البارزة جسم ، وإن كان غذاء روحانيا فالبارز عنه أمر روحاني"[2]. وهذا يعني أن التناسل هو فعل كوني شامل وليس فعل العالم المحسوس فقط .

فأفعال الكون مثل حركة السماء أو حركة الأجرام السماوية ، فحركتها هي فعلها وحياتها ، وبها تتحكم في النجوم الداخلة في نطاق دورانها ولكل ذلك تأثيره على الأشياء في الحياة الأرضية كتأثير الشمس والنجوم وخلافه ، وهذه الأفعال الكونية ما كان يمكن أن تحدث لولا أن الكون كائن حي واحد تترابط أجزاؤه في ميل وتعاطف ، ومن هنا يحدث الفعل والانفعال بين عناصره . لذلك فإن الأفعال الطبيعية في الكون لا تجرى بالبخت ولا تسير عشوائيا ، بل تسترشد بالعقل الذي يوجد في الكل الحي ، ومن هنا يكون

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٣٩ .

الانسجام والنظام بين العلة والمعلول ، بين ما يفعل وما ينفعل . ويكون لكل فعل كوني غاية تتوارى أمامها كل الغايات والأهداف الجزئية . وفهم الأفعال الكونـية يساعد على فهم الحوادث والتنبؤ بها ، فما يحدث مثلا من حركات في عالم السماء يؤثر في العالم بأثره نتيجة للترابط بين أجزاء الكون الواحد ، والأفعال الكونية في جزء من الكون تؤثر في غيره من الأجزاء . مما يجعل للأفعال قدرة مزدوجة " أن تحدث وأن تتبئ " (١).

وحوادث الكون لا تعتمد على مبادئ بذرية أي " الكلمات العالية الفواعل " بـل علـى مبادئ أشمل تنتمي إلى موجودات سابقة على المبادئ البذرية " لأننا لا نجد في المبادئ البذرية علة الحوادث التي تكون مضادة لتلك المبادئ ذاتهـا . ولا علـة الأمور التي تصدر عن المبادئ وتشارك في الكون ، ولا علـة الأفعـال التي تؤثر بها الموجودات المتولدة بعضها عن بعض ، وأن المبـدأ العاقل في الكون لأشبه بعقل يضفي النظام والقانون على مدينة ويعلم مقدمـاً أفعـال المواطنين ونواياهم وهو يدبر كل ذلك بأن يقننه ويعلم كيف يجمع بالقوانين أهواء المواطنين وأفعالهم . وما يرتبط بها من شرف أو عار ، بحيث يسير كل ما في المدينة على وفاق من تلقاء ذاته " (٢).

والحـوادث تتبـئ بهـا علامات ، دون أن يكون الإنباء هو أول هدف للطبـيعة، وإنما ينجم عن مجرى الحوادث أن يبشر بعضها بالبعض الآخر ، ذلك لأن الكون واحد ، ولأن الحوادث هي حوادث كون واحد ، ولأن كلا من الحـوادث يعـرفه الآخـر : العلة يعرفها المعلول ، والتالي يعرفه المقدم ، والمركب يعرفه أحد عناصره بفضل اتحاد الجزء بالكل في الكون .

---

(١) أفلوطين : التساعية الرابعة في النفس ، ص ٢٦٤ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٢٧٠ .

**(ب) الفعل فى إصلاح وجود العالم :**

علـــى عكـــس مسار الفعل في تكوين الوجود ، يكون مسار الفعل في إصـــلاحه مســـارا صاعدا يتجاوز فيه الإنسان الواقع المحسوس إلى العقل ، وإن تعـــددت ســـبل المجـــاوزة : العلم ، الحكمة ، والنبوة ، فإن الهدف في الجميع واحد ، وهو إصلاح وجود العالم وتحقيق سعادة البشر .

وإن كان فعل تكوين وجود العالم ، فعلا طبيعيا وضرورة محتومة . فإن فعـــل العـــودة للعقـــل وإصـــلاح وجود العالم هو فعل إنساني متعدد الأبعاد الأخلاقية ، والابستمولوجية والسيسولوجية والسياسية .

هـــو فعل أخلاقي ، لأنه فعل إنساني أي فعل إرادة واختيار " [1]. وكل فاعل يفعل بإرادة فإنما يفعل أفاعيل ممدوحة ومذمومة ، يفعل خيرا أو شرا " [2]. ويكـــون الفعل شرا إذا انغمس العقل وذاب فيما هو بهيمي ومحسوس ، ويكون خيرا إذا استطاع الانسان تجاوز واقعة المحسوس إلى العقل . فالحياة بـــالعقل طـــريق ممكـــن ، والإمكان يعنى أنه فعل مشروط ممكن إن يحدث وممكن ألا يحدث أي أن العودة إلى العقل ليست حركة شاملة في كل البشر ، بـــل حركة يقوى عليها البعض دون البعض . لأن جوهر هذه الحركة يكمن فى قدرة وإرادة الإنسان على تجاوز الواقع إلى العقل .

وفـــى الـــتجاوز يبدو البعد الابستمولوجى للفعل . ويعبر عنه أفلوطين بالعلم ، والحكمة ، والنبوة . ورغم ثلاثية البعد الابستمولوجى ، إلا أنه يرسم طريقتين فقط للتجاوز : الأول اكتسابا ونموا وتوليدا . والثاني عيانا ومشاهدة

---

(١) أفلوطين عند العرب ، ص ٢٢٦ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٧٥ .

فالطـريق الأول فـي الـتجاوز هو طريق العلم حيث يقول أفلوطين الإنسان بما هو حيوان ونام قابل التغذية والنمو وأصناف الكون وتوليد المثل . وبما هو انسان يقبل العلوم والمعارف ، فان تجوهرت ذاته بها ، كانت له أيضـا ولادة عقلـية روحانـية غير ولادته الطبيعية ، وهى إفاضة علومه ومعارفه على المتعلمين ، والتلاميذ . فإن قويت هذه الولادة فيه ، وتمخضت مخضا شديدا جبرهم على التعلم وأخذهم في طريق السعادة طوعا أو كرها "[1].

ذلك هو طريق العلم بينما طريق المعاينة أو المشاهدة الفعل فيه متجه مـن الخـارج إلـى الداخل ، في مسار صاعد من المحسوس إلى المعقول تحددت طبيعته على نحوين : بدايته " فعل " ، ونهايته " قوة " .

والفعل في هذه الحركة الصاعدة ليس سوى " ضرب من الروية ، بينما القوة بغير روية ولا فكر ، أنها تعاين الأشياء عيانا " [2]. ولكن الفعل مطلب ضروري لنهوض القوة ، لأن النفس وإن صارت في البدن لم تقدر أن تصل إلى جواهر الأشياء وقواها إلا بخرق القشور ، فاحتاجت في ذلك إلى الفعل ، وفعلهـا إنمـا هو نهوض قوتها . وما يعنيه أفلوطين بالنهوض إن النفس إذا أرادت علـم العـالم المعقول رفعت قوتها من هذا العالم السفلي بالخلوة إلى النفس والتجرد من البدن " فاكون داخلا في ذاتي راجعا إليها خارجا من سائر الأشياء ".[3]. لذلك فالصعود حركة بنوع سكون ، وسكون بنوع حركة ، انه فعـل سـاكن للنفس من سائر الأشياء الخارجية . تنظر فيه إلى ذاتها لا إلى الخـارج . لذلـك يقـول أفلوطين " من قدر على خلع بدنه وتسكين حواسه

(١) أفلوطين : أفلوطين عند العرب ، ص ٢٢٦ .

(٢) أفلوطين : أفلوطين عند العرب ، ص ١٠١ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ٢٢ .

ووساوسه وحركاته صار قادراً على الرجوع إلى ذاته ، والصعود بعقله إلى العالم العقلي .

فالصعود إلى العالم العقلي هو عودة النفس إلى ذاتها بكثرة " التأمل " وطول الفكـر ، والأعراض عن الحواس وهجرها حتى انه ربما مر بالإنسان عدوه أو صـديقه لـم يشـعر بـه ، وربما حضرته أصوات هائلة ولا يسمعها ، ويخاطب فلا يعي خطابا ولا يجيب جوابا ، لأنه غائب عن حواسه ، وداخل فـي ذاتـه ولا يـزال كذلك حتى يقضى نظره بما كان تروى فيه ، فحينئذ يحضـر ويعيد حواسه ، إلى استعماله فلذلك من أراد أن يدرك النفس والعقل والإنّـية الأولى ينبغي أن يعود إلى ذاته ويهجر عالم الحس ويغيب عنه بقدر إمكانه " [١].

هـذا هـو الفعـل ، فعل العودة إلى الذات ، فعل الروية و التأمل ، به تـتحقق قـوة النفس في معاينة العقل والإنّية الأولى ، وطالما أن النفس في العـالم المحسـوس فإن الفعل هو الذي يتمم القوة ويأتي بها إلى الغاية " [٢]. وهى صعود النفس إلى العالم المعقول ، وهى غاية لا تحقق إلا بتعب ومشقة لذلك يقوى عليها البعض دون البعض .

ومن هنا يرى أفلوطين أن فعل العودة إلى الذات ، إلى العقل ليس فعلا ممكـنا لعامة الناس ، بل يخصه أفلوطين بالصفوة من البشر حيث " تنهض تلـك القـوة فـي خـواص الناس ، ومن كان من أهل السعادة [٣] وإن كان أفلوطيـن يحـدد مـا يقصده بخواص الناس الفئة الأرستقراطية إلا أن أهل السـعادة عنده هم العلماء والحكماء والأنبياء وهم المنوط بهم إصلاح العالم

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٢٣ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٠١ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

وتحقيق السعادة للمجتمع البشرى ، طوعا من أطاع وكرها من عصا فالإصلاح صادر من أهل السعادة والصفوة صادر عن ولاية عقلية روحانية . ولهذا ينبغي أن يكون الإصلاح فعل إجبار ، فعل قوة ، ولا يكون مجالا للقبول أو الرفض . لأن الفعل الإصلاحي المفروض هو العقل الذي تحقق بالولادة العقلية الروحانية للعالم والحكيم والنبي .

والإصلاح لا يعنى رفض النظام الاجتماعي القائم " وهو الإمبراطورية الرومانية " ، بل تصحيح مسار النظام وتوجيه بالعقل . عقل العلماء والحكماء والأنبياء ، في تشكيل حكومة أرستقراطية .

**( ج ) مغزى الفعل في حركته الصاعدة :**

من النظر في فلسفة الفعل في حركته الصاعدة نجد أن التوقف عند بعض المعاني الجزئية في نصوص أفلوطين وعدم آخذها في إطار الكل لا يعبر عن المغذى الحقيقي لفعل الصعود كقول أفلوطين " إن الإنسان إذا أدرك الإنسيات الشريفة العالية ، وارتقى منها إلى المبدأ الأول هان عليه هذا العالم الحسي المموه المعجون بطين الخيال المخمر بأصناف الشرور السريع الاستحالة والزوال " [1]. لأن ثمة معنى ومغزى آخر لفعل الصعود يتجاوز أن يكون مجرد سكينة وعزاء للإنسان عما يعانيه في واقعه المحسوس ، ليكون حركة نهضة جديدة للإنسان ، للعقل ، قادرة على أن تعيد من جديد تشكيل الواقع وتنظيمه تنظيما عقليا . وهذا هو ما يريده أفلوطين من الحركة الصاعدة فالتغير والإصلاح لا يأتي إلا بقدرة الإنسان وإرادته ، قدرة العقل على مجاوزة الواقع ثم إعادة ترتيبه من خلال العقل ، ذلك هو مغزى الصعود ، هو عودة إلى العقل فس إذ تحيا في العقل ، تهب الجسم مبدأ

(١) أفلوطين ، أفلوطين عند العرب ، ص ٢٢٤ .

عاقلا هو صورة لما لديها من عقل ، وكل ما تضفيه على الجسم صورة من حياتها " [1]، ولذلك ينبهنا أفلوطين إننا " علينا أن نتذكر جيداً ، إننا إذا كنا نتصور النفس واردة إلى الجسم وباعثة فيه الحياة ، فما ذلك إلا للتوضيح ، ولتقريب فكرتنا إلى الأذهان إذ أن الكون لم يكن أبداً بلا نفس ولم يحدث أبداً أن وجدت مادة عدمت النظام ، ولكن من الممكن تصور تلك الألفاظ النفس ، الجسم ، المادة ، النظام بأن نفصل أحدهما عن الآخر بالفكر ، فالمرء بفكره وعقله عناصر كل مركب " [2]. ومغزى هذا النص واضحا ، فيه يؤكد أفلوطين أن لا انفصال بين العقل والجسم والنفس إلا على مستوى الفكر فقط ، بل أن النفس والطبيعة والعالم المحسوس ككل وحدة واحدة ، والإنسان ينتمي إلى هذا العالم ، جزء منه مشارك فى صنعه وتنظيمه .

وعندما ينهض الإنسان تنهض قواه العاقلة ، فيقظة العقل هى يقظة للإنسان لينظم عالمه من جديد . والعالم كما يقول أفلوطين لم يتشكل على نحو مطلق وإلى الأبد ، بل " أن النفس متى كانت مجاورة للعقل تتشكل تبعا للصور التى تتلقاها منه ، وتنقل تلك الصورة إلى الأشياء الأدنى منها ، أما على نحو ثابت ، أو على نحو متغير تبعا للزمان فى مسار متغير ولكنه منتظم " [3]. وهذا يعنى أن التشكيل المطلق والنهائى للعالم ليس وارد عند أفلوطين ، بل أن تشكيل العالم في تغير منتظم . ولكن يجب أن نلتفت إلى الفارق بين التشكيل وإعادة التشكيل ، وهو الفارق بين هبوط النفس وصعودها . فإن تخلق النفس العالم وتشكله ، فذلك فعل ضرورى محتوم ومبدأ طبيعي ، ولكن أن يعيد الإنسان تنظيم العالم فذلك يقتضي الحركة

---

(1) أفلوطين ، التساعية الرابعة في النفس ، ص ١٩٢ .

(2) أفلوطين ، التساعية الرابعة في النفس ، ص ١٨٨ .

(3) أفلوطين ، التساعية الرابعة في النفس ، ص ١٩٤ .

الصـــاعدة يقتضي العودة إلى العقل ، ومن ثم يقتضي موقفا إراديا اختياريا ، لا يقوى عليه سوى صفوة البشر .

فتغيـــير الواقـــع هو فعل الصفوة أهل السعادة لا فعل العامة ، والصفوة عند أفلوطين " ترادف الأرستقراطية " ، ترادف الفضلاء من البشر : العلماء ، والحكمـــاء ، والأنبياء ، وفيهم يحكم العقل مختلف قوى النفس ، ويتخلص من تأثيرها وينظمها ، ولا يذوب فيها ، بل هو متجاوز تماما لها . معنى هذا أن العقـــل لا يكون حاكما ، منظما للواقع إلا فى ظل النظام الأرستقراطي ، ففـــي هذا النظام يكون للعقل وضع خاص فهو أفضل النظم لدى أفلوطين ، لأن العقـــل فـــيه يستوعب كل قوى الواقع ولا ينتابه ضعف . لذلك يختلف وضـــع العقـــل فـــى الـــنظام الأرستقراطي عن وضعه فى النظم الغوغائية والديموقراطـــية ، ففي تلك النظم يمتزج العقل بأمور أخرى ، ويختلف دوره مـــن المنظم الحاكم ليكون كالناصح الأمين في الغوغاء ، أو يكون كالعنصر الطيـــب فـــى حكومة ديمقراطية . فإذا ما تقدم إلى ما هو أصلح كانت حياته أشبه بحكومة ارستقراطية، لأنه يتخلص من مجموع الملكات ولا توجهه إلا الأصـــلح مـــنها "[1]. ومن هو الأصلح ؟ هو الإنسان التام الفضيلة ، فيه قوة واحدة تحكم باقي القوى وتنظمها وتنفصل عنها تماما " [2]. فمن هو الإنسان الـــتام الفضيلة الذي لا يحكم نفسة سوى مبدأ واحد على نحو مطرد به يتميز عن بقية النفوس ؟ والإجابة فى التساعية الرابعة يحدد أفلوطين فئة واحدة من البشر هم العلماء ، " ففي نفس العالم يحكم مبدأ واحد على نحو مطرد " [3]. ولكن في نصوص أفلوطين المنحولة على غيره ، لا يخص أفلوطين الإنسان

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .

(٣) أفلوطين ، أفلوطين عند العرب ص ٢٢٦ .

التام الفضيلة بالعلماء فقط بل ، " العلماء ، والحكماء ، والأنبياء " [1]. ووجه التمايز والتفاضل بينهما لا يأتي من النبوة أو العلم ، أو الحكمة ، بل يأتى من " عالمية " طلبهم في إصلاح العالم ، أى أن يكون العالم أو الحكيم أو النبي في هذا النداء متجاوزاً لأمته وقومه وأهل بيته إلى العالم بأسره . وإن لم يتحقق الإصلاح طوعا ، كان على العالم أو الحكيم أو النبى يحققه كرها ، وذلك إقرار للقوة فى إصلاح العالم وإجبار البشر على طريق السعادة طوعا أو كرها . وعند هذا الحد لا يبدو ثمة وجه للتمايز بين دور النبي ، ودور العالم والحكيم في إصلاح العالم . ولكن ثمة وجه للخلاف يطرحه أفلوطين بينهما هو أن الحكماء أكثر عددا من الأنبياء وأقل شرفا ، ولكن ما يعنيه أفلوطين بالشرف فى هذا الموضوع ليس شرف العلم ، بل الوضعية الاجتماعية والاقتصادية فيقول " أنهم ( أى الحكماء ) أكثر منهم عددا ( أي من الأنبياء ) وأقل شرفا ، وهم مختلطون بالهيولى أكثر وأكثر : فمنهم الصناع في الصنائع المدنية " [2].

**وخلاصة القول أن الفعل فى إصلاح وجود العالم يدور حول محاور ثلاثة :**

١ – الفعل في إصلاح الوجود الإنسانى ، تعليم علمى ونهضة للعقل

٢ – الفعل في إصلاح الوجود الاجتماعي دور الفضلاء من العلماء والحكماء والأنبياء ، وهو دور لا جبار البشر على الإصلاح طوعاً من أطاع وكرهاً من عصا .

٣ – والفعل في الوجود السياسي حكومة أرستقراطية ، عقل منظم للواقع متجاوز له .

---

(1) أفلوطين عند العرب ، ص ٢٢٦ .

(2) أفلوطين عند العرب ، ص ٢٢٦ .

وذلك هو مغزى فلسفة الفعل فى حركته الصاعدة وإغفاله إغفال للعقل في نهضته وقيادته للواقع تنظيماً وترتيباً وإصلاحاً . بل إغفال للعقل فى فلسفة أفلوطين ككل لنؤولها فلسفة روحانيه إشراقية يلونها كل على هواه بمقتضى وجدانه العقائدي . فيضيع مغزى فلسفة أفلوطين ، ويضيع الفعل والعقل من مدرسة الإسكندرية .

## ثالثا : موقف العصر الإسلامي من فلسفة الفعل :

### ( أ ) موقف الإيجاب والاتصال :

يتسم موقف العصر الإسلامي من فلسفة الفعل عند أفلوطين بالأذدواجية . بدأ بالإيجاب ، وانتهى بالسلب . بدأ بالاتصال ، وانتهى بالقطيعة ، وفى الاتصال كان جدل الأفلاطونية مع الواقع ، والواقع واقع ديني يسعى الي التفلسف ، والفلسفة تقتضي العقل ، والعقل لا يسلم إلا بما هو معقول ومنطقي ، فكان على العقل أن يضع القضايا الدينية موضعا للنظر العقلي . وقضايا الدين عديدة : الخلق والبعث ، والثواب والعقاب ، والنبوة ... الخ وهى جمعيها في الواقع إشكاليات يقبلها الوجدان الديني اعتقادا ، ولا يأخذ العقل بها إلا إذا استطاع العثور على تفسير منطقي لها . وذلك هو ما قام به الفارابي وابن سينا ووجدوا سبيلهم إلى ذلك في فلسفة الفعل عند أفلوطين . وقد عرفوا فلسفة أفلوطين منحولة على أرسطو في " اثولوجيا أرسطو طاليس " ، وقد وجدوا في رؤية أفلوطين منطقا عقليا يفسر الكثير من المشكلات الدينية ، ويساعدهم في بناء أنسقة فلسفية لا تتقابل والدين ، بل هى بمثابة تأويل فلسفي للقضايا الدينية .

وأهم ميزة تتسم بها فلسفة أفلوطين والتي كانت مرتكز التواصل ، هى إقرار أفلوطين لموضوعية الفعل في مستوياته المختلفة ، الإلهي والعقلي

والطبيعي والكوني . فللفعل موضوعيته في مختلف مستويات الوجود ، وذلك هو تميز أفلوطين الحقيقي . وإقرار موضوعية الفعل على المستوى الطبيعي والكوني يلزم عنه بالضرورة إقرار موضوعية الفعل على المستوى الاجتماعي والإنساني ، فيكون وجود البشر وترتيب حياتهم ونظامها رهناً بأفعالهم .

وفلسفة أفلوطين هى من أهم الأسس التي استند إليها الفارابي ، وابن سيناء في بناء رؤاهما الفلسفية بل أفكارهما السياسة ، كما جاء فى " آراء أهل المدينة الفاضلة " للفارابي ، فكان التواصل تواصلا حقيقيا متعدد الأبعاد:

- تواصل في المنهج .
- تواصل في الرؤية أو الفكر .
- تواصل في المصطلح .

وإن كان من الصعب فصل الإبعاد الثلاثة لأن عرض الأفكار يقتضي منهجا ، والفكر لا يتواصل إلا مصاغا في مصطلحات ، فإن كان ثمة تواصل تواصلت المصطلحات بالضرورة .

والمنهج عند أفلوطين منهج عقلي ، فالعقل هو أداة النظر ومنهج العلم ، وما تفسير صدور الكثرة عن الواحد أو الفيض إلا تصور عقلي لخلق العالم والكون ، وما البحث في المستويات المختلفة للوجود الحسي والعقلي ، بل للكون ككل إلا الكشف عن مبادئ الموجودات وعللها وكيف تفعل وما طبيعة فعلها ، وما أسفر عنه النظر العقلي في أبعاد الوجود هو رؤية العالم بلْ الكون ككل في ترابط ضروري . والضرورة مبدأ شامل لمختلف أبعاد الوجود ، معقول أو محسوس . فكل موجود فاعل ، وكل موجود مفعول . كل موجود فاعل وفعله واقع على غيره ، وغيره مهيأ لقبول فعله وتأثيره فيه

، وبفضل هذا كان الترابط الضروري بين العلة والمعلول . ولا مجال للبخت أو الاتفـــاق أو الصدفة في تفسير ما يجرى في العالم فلكل معلول علة قريبة كانت أو بعيدة ، تامة ناقصة معروفة أو مجهولة ، ولكن لا شيء يأتي عفوا ، وكـــل ما يحدث عن علة والعلة مبدأ أساسه هو العقل فالعقل أساس الوجود وأساس تكوينه ووحدته عند أفلوطين . وفلسفة الفعل هى أهم الأبعاد الفلسفية التـــي امتدت إلى الفارابي وابن سينا ، فأخذوا بنظرية الفيض كتفسير عقلي للفعـــل الإلهي في خلق العالم ، وأقروا الضرورة في الكون وإن لكن متكون علـــة مكونـــة لـــه اضطرارا . فالسببية شاملة في كل إبعاد الوجود معقول ومحســـوس فكما أن الله علة فاعلة ، فالموجودات الطبيعية أيضا قادرة على الفعـــل ، وفعلها مردود إلى ما يسميه الفارابي " قوى " بها يتحرك الجسم من تلقاء ذاته ، وبها يقبل فعل غيره من الأجسام فيه .

وإن كانت القوى عند الفارابي ، تناظر " الكلمات العالية الفواعل " عند أفلوطين ، فذلك من حيث الوظيفة باعتبارهما قوى فاعلة في الأشياء ، ولكن الاختلاف يبدو حول مصدر تلك القوى ، وهو عند أفلوطين مصدر مثالي أنه العقل ، بينما عند الفارابي يبدو الأمر خلاف ذلك . حيث يقول الفارابي " في مراتـــب الأجســـام الهيولانـــية في الحدوث ، يحدث أولا الاسطقسات ثم ما جانســـها ، وقارنهـــا مـــن الأجسام . مثل البخارات وأصنافها ، مثل الغيوم والرياح وسائر ما يحدث في الجو ، وأيضا مجانساتها حول الأرض وتحتها وفى الماء والنار ، ويحدث في الأسطقسات وفى كل واحد من سائر تلك قوى تتحرك بها من تلقاء نفسها إلى أشياء شأنها أن توجد لها . أو بها بغير محرك مـــن خـــارج ، وقوى يفعل بعضها في بعض ، وقوى يقبل بها بعضها فعل بعـــض ، ثم تفعل فيها الأجسام السماوية ، وبفعل بعضها في بعض ، فيحدث مـــن اجتماع الأفعال من هذه الجهات أصناف من الاختلاطات والامتزاجات

كثيرة ، والمقادير كثيرة مختلفة بغير تضاد ومختلفة بالتضاد . فيلزم عنها وجود سائر الأجسام ... وبعض الأجسام يحدث عن الاختلاط الأول وبعضها عن الثاني وبعضها عن الثالث ... ويحدث في كل واحد من هذه الأنواع قوى يتحرك بها من تلقاء نفسه وقوى يفعل بها ، وقوى يقبل بها فعل غيره فيه ... ثم الأجسام السماوية تفعل في كل واحد منها مع فعل بعضه في بعض ... فتقترن أصناف الأفعال السماوية فيها إلى أفعال بعضها في بعض فيحدث من اقترانها امتزاجات واختلاطات أخرى كثيرة جدا يحدث في كل نوع أشخاص كثيرة مختلفة جدا . هذه هى أسباب وجود الأشياء الطبيعية التي تحت السماوية " (١).

ويركز الفارابي على تحديد الفعل الضروري من تحديد شرطه وهو التهيؤ في الفاعل للتأثير ، وتهيؤ المنفعل للقبول . وبدون التهيؤ بين الطرفين تصبح الأفعال والآثار الطبيعية أقرب إلى الإمكان منها إلى الضرورة ، وله في ذلك شرح يقول " قد يظن بالأفعال والآثار الطبيعية أنها ضرورية ، كالإحراق في النار والترطيب في الماء والتبريد في الثلج ، وليس الأمر كذلك ، لكنها ممكنة على الأكثر لأجل أن الفعل إنما يحصل باجتماع معنيين : أحدهما تهيؤ الفاعل للتأثير ، والآخر تهيؤ المنفعل للقبول ، فمهما لم يجتمع هذان المعنيان لم يحصل فعل ولا أثر البتة ، كما أن النار وإن كانت محرقة فأنها متى لم تجد قابلا مُتهيأ للاحتراق لم يحصل الاحتراق ، وكذلك الأمر في سائر ما أشبهها ، وكلما كان التهيؤ في الفاعل والقابل جميعا أتم كان الفعل أكمل ولولا ما يعرض من التمنع في المنفعل لكانت الأفعال والآثار
الطبيعية ضرورية " (٢).

---

(١) أبي نصر الفارابي ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، تحقيق البير نصري نادر ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ص ٦٠ - ٦٢ .

(٢) أبي نصر الفارابي : الجمع بين رأى الحكيمين أفلاطون الإلهي وأرسطو طاليس ( نكت أبي نصر الفارابي فيما يصح وما لا يصح من أحكام النجوم ) مطبعة السعادة . الطبعة الأولى ١٩٠٧ ، ص ٧٣ ، ٧٤ .

ومغزى هذا النص ليس إلغاء للضرورة ، بل تحديد لمعنى الضرورة في الفعل ، ومتى تكون الضرورة واقعة على الطلاق ومتى تكون ممكنة الحدوث . ويصنف الفارابي الأفعال في الكون بين أحداث معلومة الأسباب وأحداث ليست لها أسباب معلومة ، ويسميها اتفاقية ، أي أن لها أسباب ، ولكن لم يصل إليها الإنسان بعد [1] ، ذلك أنها بعيدة جدا عن متناول الإنسان ، وذلك ليس تصنيفا للأفعال فقط ، بل تصنيفا للعلل ، بين علل وأسباب قريبة ، وعلل وأسباب بعيدة ، يظن بالعلل البعيدة أسبابا للأحداث الاتفاقية في العالم . فيقول " أمور العالم وأحواله نوعان : أحدهما لها أسباب عنها تحدث وبها توجد كالحرارة عن النار وعن الشمس توجد الأجسام المجاورة والمحاذية لهما ، وكذلك سائر ما أشبههما ، والنوع الآخر أمور اتفاقية ليست لها أسباب معلومة ، كموت الإنسان أو حياته عند طلوع الشمس أو غروبها ".

وكل أمر له سبب معلوم فإنه معد لأن يعلم ويضبط ويوقف عليه ، وكل أمر هو من الأمور الاتفاقية فإنه لا سبيل إلى أن يعلم ويضبط ويوقف عليه بجهة من الجهات ، والأجرام العلوية علل وأسباب لتلك، وليست بعلل وأسباب لهذه" [2]. والعلل والأسباب القريبة المضبوطة ، مثل حمى الهواء من انبثاث ضوء الشمس فيه والبعيدة قد يتفق أن تصير مدركة معلومة مضبوطة وقد تكون مجهولة ، فالمضبوطة المدركة منها كالقمر يمتلئ ضوء ويسامت

---

(١) وهو عين ما يقوله ابن سينا " جميع الأشياء الطبيعية تتساق في الكون إلى غاية وخير وليس يكون شيء منها جزافا ولا اتفاقا إلا في الندرة بل لها ترتيب حكمي وليس فيها شيء معطل لا فائدة فيه وليس يكون عن المبدأ الأول المباين فيها فعل قسري ولا خلاف لما توجبه القوة المجبولة فيها منه إلا على سبيل التأدي والتولد ". ابن سينا النجاة الطبعة الثانية على نفقة محيى الدين صبري الكردي ، ١٩٣٨ ، الطبعة الثانية ، ص ١٠٢ .

(٢) أبي نصر الفارابي ، الجمع بين رأى الحكيمين ، نكت أبي نصر فيما يصح وما لا يصح من أحكام النجوم ، ص ٧٢ .

بحـــرا فيمـــتد فيســـقى الأرض فينبت الكلاء فيرتعها الحيوان فيسمن فيريح الإنســـان فيستغني ، وكذلك وما أشبهها ... ولا يستنكر أن يحدث في العالم أمور لها أسباب بعيدة جداً فلا تضبط لبعدها ، فيظن بتلك الأمور أنها اتفاقية وأنهـــا مـــن خير الممكن المجهول ، مثل أن يسامت الشمس بعض الأماكن الـــندية فترتفع بخارات كثيرة فينعقد منها سحائب ويمطر عنها أمطار وتكدر بهـــا أهويـــه فتتعفن بها أبدان فتعطب فيرثيم أقوام فيستفنون ، غير أن الذي يزعم أنه قد يوجد سبيل إلى معرفة وقت استفناء هؤلاء القوم ومقداره وجهته من غير اقتفاء السبيل الذي ذكرت مثل تفاؤل أو معاقبة أو استخراج حساب أو مناسبة بين أجسام أو أغراض فهو مدع ما لا يذعن لـــــــه عقل صحيح البتة " [1].

وهنا يركز الفارابي على القيمة الحقيقية للتفكير العلمي في اقتفاء الآثار والبحـــث عـــن الأســـباب ، وأن التسليم والأخذ بالأسباب في تفسير وفهم ما يحـــدث فـــي العـــالم من أحداث هو دعامة وحماية للإنسان من التفكير غير العلمـــي تفكير التفاؤل والغيبيات والخرافات . وهنا كان تواصل الفارابي مع فلســـفة الفعـــل ، تواصل مع أفلوطين بإثبات الأسباب الفاعلة في أمور العالم وأحداثه ، فلكل معلول علة كما قال أفلاطون في طيماوس " لكل متكون علة مكونة له اضطرارا ، والمتكون لا يكون علة لكون ذاته " [2].

ويخلـــص الفارابي من النظر في أحوال العالم وأحداثه وأسبابه الفاعلة إلـــى النظر في العلة الأولى والسبب الأول في وجود العالم ، وقبل أن يفسر كيفـــية صـــدور العـــالم عن الله يحاول بداية إثبات معلوليته لله ليكون إثباتاً

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٢٣ .

وبـــرهاناً [1] علـــى وجود الله . ويجب أن نلتفت إلى الاختلاف بين الفارابي وأفلوطيـــن في تصور الألوهية فالله عند أفلوطين ليس موضوعا لنظرية في الوجود أو لنظرية في المعرفة . بل هو متجاوز دائرة الوجود ودائرة المعرفة ، بيـــنما الفارابـــي وابـــن سينا الله من مكونات العالم العقلي [2] ، لذلك هو موضـــوع للإثـــبـــات والـــبرهان [3] ، ومن هنا كان التواصل بين الفارابي وافلوطين ليس هو تواصل المطابقة بل هو تواصل متأثر بالخصوصية الدينية . وذلك يبدو واضحاً من كلام الفارابي في طبيعة الفعل الإلهي ، هو فعل عن إرادة وعلـــم كلـــى [4] ، لا عن طبع خال من المعرفة والإرادة ، حيث يقول

---

(1) الأمـــور الداخلـــة فـــي الوجود تنقسم إلى قسمين منها إذا اعتبر بذاته وجب وجوده وهذا الذي يسمى واجب الوجود ، وأن الممكن الوجود متى فرض غير موجود لم يلزم عنه محال ، وإنه لا بد من أن يكون له علة ، وأن الممكـــن الوجـــود بذاته واجب الوجود بغيره ، وأن الأمور الممكنة الوجود لا يجوز أن تترقى فى العلية والمعلولية إلى ما لانهاية له ، ولا يكون دور بل ينتهي إلى واجب الوجود بذاته وهو الموجود الأول ، والسـبب الأول لوجـــود سائر الموجودات .رسائل الفارابي ، الدعاوى القلبية ، ص ٣ ، وأيضا عيون المسائل ، ص ٢٢ .

(2) يتألف العالم العقلي عند الفارابي من موجودات غير جسمية ، وهى ست مراتب : الثلاثة الأولى منها مفارقة للأجسام وهى الله وعقول الأفلاك والعقل الفعال . أما الثلاثة الأخيرة وهى وإن كانت غير جسمية إلا أنها ملابسة للأجسام وهى النفس ، والصورة ، والهيولى .

(3) غـــير أنـــنا نجد بعض نصوص ابن سينا تخالف الفارابي ملتقية تماما مع أفلوطين ، حيث يرى أن وجود الله ليس موضوعا للبرهان ، فيقول " ظهر لنا أن للكل مبدأ واجب الوجود غير داخل في جنس أو واقع تحت حـــد أو برهان ، بريئا عن الكم والكيف والماهية والأين والمتى والحركة ، لا ند له ولا شريك ، ولا ضد وأنـــه واحـــد مـــن جميع الوجوه " ، ابن سينا ، النجاة ، في الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية . الطبعة الثانية ١٩٣٨ ، طبع على نفقة محيى الدين صبري الكردي " .

(4) العلـــوم مـــنها جزئية ومنها كلية ، والعلوم الجزئية موضوعاتها بعض الموجودات أو بعض الموهومات ، ويختص النظر بأعراضها الخاصة لها مثل علم الطبيعة فإنه ينظر بعض الموجودات وهو الجسم من جهة مـــا يتحرك ويتغير ويسكن عن الحركة ومن جهة ما له مبادئ ذلك ولواحقه وعلم الهندسة ... وغير ذلك من العلوم الجزئية .

وأمـــا العلـــم الكلـــى فهو الذي ينظر في الشيء العام لجميع الموجودات مثل الوجود والوحدة وفى أنواعه ولواحقـــه وفـــى الأشـــياء التـــي لا تعرض بالتخصيص لشيء من موضوعات العلوم الجزئية مثل التقدم والتأخر والقوة والفعل التام والناقص ، وما يجرى مجرى هذه وفى البدء المشترك لجميع الموجودات وهو الشيء الذي ينبغي أن يسمى باسم الله جل جلاله ، وينبغي أن يكون العلم الكلى علما واحدا ، فإنه لو كان -

الفارابـــي " عنه توجد سائر الموجودات على جهة فيض وجوده بوجودها ، وعلـــى أن وجودها فائض عن وجوده وأن يترتب عنه الموجودات الفائضة عنه مراتبها ويحصل لكل موجود قسطه الذي هو وجوده ومرتبته منه ، وإن يكون الكل عنه ، ولا يجوز أن يكون وجودها على سبيل قصد شبيه بقصدنا فيكون قاصداً لأجل شيء غيره وأن كونه عنه لا يجوز أن يكون على سبيل الطـــبع الخالي من المعرفة والإرادة وإن كونه منه على سبيل أنه يعقل ذاته التي هى المبدأ لنظام الخير في الوجود فيكون هذا التعقل علة للوجود بحسب مـــا يعقلـــه ، فـــإن عقله للكل ليس بزماني بل على أنه يعقل ذاته ويعقل ما يلـــزمه على الترتيب معا وليس يلحقه تكثر في ذاته لعقله الكل والكثرة . إنه علة الوجود ، وجود الكل على معنى أنه يعطى الكل وجودا دائما ويمنع العدم مطلقـــا ، لا علـــى أنه يعطى الكل وجودا جديدا بعد أن تسلط العدم عليه إلا العدم الذي يستحقه الكل بذاته فيكون علة على أنه مبدع " [1]. وينفى الفارابي أن يكـــون فـــيض العالم عن الله لقصد شبيه بقصد الإنسان لأن معنى القصد يتضـــمن أن هناك شيئا آخر يقصد إليه ولا ينبغي أن يكون وجود العالم على سبيل الطبع لأن الطبع لا يستلزم الإرادة .

وهـــنا نجد أن ثمة اختلافا كما نجد ثمة اتفاقا بين أفلوطين والفارابي في طبيعة الفعل الإلهي نجد عند أفلوطين أن كل ما كان بعد الأول فهو من الأول اضـــطرارا ، وإن كان أفلوطين يميز بين الاضطرار الروحي والاضطرار

---

= علمـــان كلـــيان لكان لكل واحد منهما موضوع علم آخر هو علم جزئي ، فكلا العلميين جزئيان وهذا خلف ، فـــإذن العلم الكلى واحد ، فينبغي أن يكون العلم الإلهي داخلا في هذا العلم لأنه الله مبدأ للوجود المطلق لا لموجـــود دون موجود ، فالقسم الذي يشتمل منه على إعطاء مبدأ الموجود ينبغي أن يكون هو العلم الإلهي " . المقالة الثانية من كتاب أبى نصر الفارابي الموسوم بالحروف لتحقيق غرض أرسطو طاليس في كتاب ما بعد الطبيعية ، مطبعة السعادة مصر ١٩٠٧ ، ص ص ١ ، ٢ .

(١) أبى نصر الفارابي ، رسائل الفارابي ، الدعاوى القلبية ، ص ٤ .

الطبيعـــي .. إلا أن مـــبدأ الاضطرار قائم في الحالتين ، فأفلوطين وإن قال بـــتعقل الأول لذاته أو تأمله لذاته إلا أنه ينفى صفة الإرادة والعلم عن الفعل الإلهـــي فعـــل الفيض ، بينما عند الفارابي " الله عالم بعلم كلى مريد وإرادته إرادة قديمـــة ، لأنه لا يجوز أن تتجدد له إرادة لم تكن له في الأزل ، وهنا نجـــد الفارابي وابن سينا ينفون أن تكون الإرادة الإلهية حادثة تنزيها للبارى حـــتى لا تصـــبح الذات الإلهية محلا للحوادث . كما أنه لا يجوز أن تكون الإرادة قديمة وفعلها حادث ، لأن ذلك يستتبع تغيرا موازيا في ذات البارى .

ويوضـــح الفارابي كيف فاض العالم عن الله فيقول " القديم بذاته واحد ومـــا ســـواه محدث في ذاته وأن أول المبدعات عنه يكون واحدا هو العقل الأول ، وأنـــه يجب أن يحصل في هذا المبدع كثرة عرضية على سبيل أنه بذاتـــه ممكن الوجود ، وبالأول واجب الوجود ، وعلى أن يعقل ذاته ويعقل الأول ، وأن الكثرة التي فيه تلزمه من الأول ، فإن إمكان وجوده هو أمر له بذاته لا بسبب الأول ، بل له من الأول وجوب الوجود ، وانه يلزم عنه هذا العقـــل الأول من حيث هو واجب الوجود عاقل للحق وجود عقل ثان ، وهو أيضـــا واحد لا كثرة فيه إلا على الوجه المذكور ، ويوجد عنه من حيث هو ممكن الوجود عاقل لذاته الفلك الأعلى بمادته وصورته التي هى نفسه ، وأن يوجـــد عن هذا الثاني عقل آخر وفلك دون الفلك الأعلى ، وذلك لما وجد فيه مـــن الكثرة العرضية ، وانه عن هذا يوجد عن كل عقل ، عقل وفلك إلى أن ينتهي إلى آخر العقول ، وهناك تستوفى عدد الأفلاك ولا يمر ترتيب العقول والأفلاك إلى ما نهاية لـــه وأن هذه العقول مختلفة بالنوع وان العقل الأخير

يصير سببا للنفوس الأرضية من جهة ما يعقله من الأول ، والأسطقساط بتوسط السماوية من جهة ما يعقله من ذاته " [١].

تلك هى نظرية الفيض كما قال بها الفارابي ، ليس الله فيها هو الفاعل الأوحد ، بل هو بداية ونقطة انطلاق في الفعل . فالفعل شامل في كل أبعاد الوجود ، وإن كان تعقل الله لذاته هو الذي أدى إلى صدور العقل الأول ، فالعقل الأول هو علة صدور العقل الثاني وجسم الفلك المحيط بالعالم كغلاف له . والعقل الثاني هو علة وجود العقل الثالث وفلك النجوم الثوابت ويستمر التسلسل والتكثر في الصدور ، فينتج عنه ذلك وجود سبع عقول تالية ، ووجود أفلاك زحل والمشترى والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر .

ثم يوضح الفارابي فعل تأثير السماويات في الأسطقسات من حيث أن الحركة السماوية هى سبب الكون والفساد في عالم العناصر الأربع أو ما تحت فلك القمر .

وما تعنيه نظرية الفيض علي هذا النحو هو التأكيد على موضوعية مبدأ السببية أو مبدأ الفعل في مختلف عناصر الوجود وموجوداته في العالم السماوي والعالم المادي ، يقر الفارابي قدرة الموجود على الفعل بذاته وعلى التأثير في غيره وعلى تقبل فعل غيره فيه ، وذلك إقرار بموضوعية الفعل في الأجسام سماوية إن كانت أو مادية إلى جانب الفعل الإلهي ، ولكن الفعل الإلهي ليس إلغاء لفعل الموجودات أو تجريدا للموجودات من قدرتها على الفعل .فالموجودات [٢] فاعلة بذاتها ، وبالتالي فإن العالم ليس فعلا لله وحده ، بل كل

---

(١) أبى نصر الفارابي ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، تحقيق البير نصري نادر ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ص ٤٤ .

(2) ذلك هو ما قاله ابن سينا أيضا " إذا استوفت الكرات السماوية عددها لزم بعدها وجود الاسطقسات ، وذلك لأن الأجسام الاسطقسية كائنة فاسدة ، فيجب أن تكون مبادئها القريبة أشياء تقبل نوعا من التغير والحركة وأن لا يكون ما هو عقل محض وحده سببا لوجودها " . ابن سينا ، النجاة ، الطبعة الثانية على نفقة محيى الدين صبري الكردي ، ١٩٣٨ ، ص ٢٨١ .

مـــا في الوجود مشارك في الفعل ، وذلك ما أقره أفلوطين من قبل فلا وجود لموجـــود معقول أو محسوس إلا ويسلك مسلك الفعل . وإن كان ثمة اختلاف بين أفلوطين والفارابي ، هو إقرار الفارابي بالإرادة والعلم الإلهي ، وهو ما ينفيه أفلوطين ، ومرد ذلك النفي هو الروح العلمية التي تسود فلسفة أفلوطين والتي تجعل الواحد خارج إطار دائرة الوجود ودائرة المعرفة ، فالوجود يبدأ مع العقل والمعرفة منتهاها إلى العقل .

ويتخذ الفارابي رؤية أفلوطين الفلسفية في العقل كأساس للوجود وأساس المعـــرفة ليقـــيم علي هذا التأسيس العقلي مدينته الفاضلة . ولا تكون المدينة فاضلة إلا إذا كان على رأسها " إنسان استكمل فصار عقلا ومعقولا بالفعل"(١) ، ومـــن كانت هذه سمته كان نبيا أو فيلسوفا ، يقوم حكمه على دعائم يفيض بها إليه العقل الفعال ، فإن وجد الحاكم الفيلسوف أو النبي كان وجوده أولاً ثم تكون المدينة ، والأولية هنا ليست أولية الشخص ، بل أولية العقل في وجود وتأسيس المدينة الفاضلة فيقول الفارابي " رئيس هذه المدينة ينبغي أن يكون هـــو أولا يكون هو السبب في أن تحصل المدينة وأجزاؤها، والسبب في أن تحصل الملكات الإرادية التي لأجزائها في أن تترتب مراتبها " (٢).

ويرتـــب الفارابـــي المديـــنة وتركيـــبها الطبقي وتسلسل طبقات البشر ووظائفهم بناء على " الفعل " وتمييزه بين الفعل الأشرف والفعل الأخس بين المعقـــول والمحسوس " فالطبقات الأعلى والأسمى قادرة على الفعل والتأثير في الأدنى ، فأشرف الأفعال هو فعل العضو الرئيسي ( والشرف هنا شرف العقل الذي يتمتع به العضو الرئيسي ) وما دونه من الأعضاء يقوم بالأفعال

---

(١) أبـــى نصر الفارابي ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، تحقيق البير نصري نادر ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ص ١٠٢ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٩٩ .

بما هو دون ذلك من الشرف ، إلى أن ننتهي إلى الأعضاء التي يقوم بها من الأفعال أخسها " [1] ، وكما كان الفعل شاملاً عند أفلوطين لكل إبعاد الوجود المعقول والمحسوس ، وأن تميز الفعل بين فعل الواحد ، وفعل العقل ، وفعل النفس ، وفعل الكائنات الطبيعية ، كذلك رأى الفارابي الفعل شاملا في المدينة مميزا فيه فعل رئيس الدولة ، وأنه لا يمكن أن يكون كأي فعل من أي إنسان ، لأن فعل الرئاسة يكون بشيئين : الأول بالفطرة والطبع ، والثاني بالهيئة والملكة الإرادية [2] ، وهو فعل لا يرأسه فعل آخر ، بل إنه فعل يؤم كل الأفعال لأنه صادر من إنسان لا يرأسه إنسان آخر ، لأن ذلك الإنسان استكمل فصار عقلاً ومعقولاً بالفعل .

وعندما يصير رئيس المدينة عقلا ومعقولا بالفعل " يوحي إليه بواسطة العقل الفعال ، وما يفيض من الله إلى العقل الفعال يفيضه العقل الفعال إلى عقله المنفعل بتوسط العقل المستفاد ، ثم إلى قوته المتخيلة . فيكون بما يفيض منه إلى عقله المنفعل حكيما فيلسوفا ومتعقلا على التمام ، وبما يفيض منه إلى قوته المتخيلة نبيا منذرا " [3].

---

[1] نفس المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

[2] يقول الفارابي " إن خصاله الجسمية والعقلية والأخلاقية حاصلة من استعداد فطرى ومن تكوين إرادي . واجتماع مثل هذه الخصال في شخص واحد أمر عسير ، ولا يحدث إلا قليلا ، وفى الواحد بعد الواحد ، ثم إذا اتفق أن لا يوجد مثله في وقت من الأوقات أخذت الشرائع والسنن التي شرعها الرئيس الأول ، ويكون الرئيس الثاني الذي يخلف الأول من اجتمعت فيه ستة شرائط : أن يكون حكيما ، حافظا للشرائع التي دبرها الأولون . أن تكون له جودة استنباط فيما لا يحفظ عن السلف ، أن تكون له جودة دراية وجودة إرشاد بالقول ، ومعه صناعة الحرب ، فإذا لم يوجد إنسان واحد اجتمعت فيه هذه الخصال ولكن وجود اثنان كانا هما رئيسين ، وإذا تفرقت هذه الخصال فى جماعة كانوا هم الرؤساء على شرط أن توجد الحكمة في أحدهم ، وإن لم يتفق أن يوجد حكيم لم تلبث المدينة بعد مدة أن تهلك " . آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ١٧ .

[3] أبى نصر الفارابي ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ١٠٤ .

**(ب) موقف السلب والقطيعة من فلسفة الفعل :**

تقابل فلسفة الفعل بالهجوم والنقد من قبل أبى حامد الغزالى ، وليس نقده موجها للفلاسفة المسلمين فقط ، بل لفلاسفة اليونان عامة وأفلوطين خاصة . ونقده لفلسفة الفعل يدور حول محورين أساسين :

**المحور الأول :** وهو الفعل الإلهي ، وهو الفعل الحقيقي عند الغزالى في كل أبعاد الوجود ، وهو فعل يصدر عن إرادة وعلم لا عن اضطرار وطبع ، وعلمه ليس علما كليا كما يظن الفارابي وابن سينا ، بل لا يغرب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض " .

**المحور الثاني :** وهو الفعل الطبيعي ، وهو الفعل المجازى عند الغزالى ، لأنه لا فاعل على الحقيقة إلا الله ، فالله هو العلة الحقيقية لكل ما في الوجود إنسان أو حيوان أو جماد " والطبيعة مسخرة من لله تعالى ، لا تعمل بنفسها ، بل هى مستعملة من جهة فاطرها ، والشمس والقمر والنجوم والطبائع ، مسخرات بأمر لا فعل لشيء منها بذاته " (١).

وينتهي الغزالى من ذلك إلى إنكار علاقة العلية على مستوى الطبيعي والإنساني والاجتماعي . فلا فاعل للحقيقة إلا الله ، ويتخذ سبيله في التدليل على ذلك التحليل الفلسفي لمعنى الفاعل والفعل ، والعلاقة بينهما . وتحديد معنى الفاعل يفضي عند الغزالى إلى تحديد طبيعة الفعل ، ومتى تحدد معنى الفاعل وطبيعة الفعل وضحت العلاقة بين الفعل والفاعل ، وهل هى علاقة حقيقية أم علاقة مجازية ، هل كل فاعل ، فاعل على الحقيقة أم أن ثمة فعلا على سبيل المجاز . ويبدأ الغزالى بالفاعل تحديدا فيقول " الفاعل من يصدر عنه الفعل مع الإرادة للفعل على سبيل الاختيار ، ومع العلم بالمراد ، وعند

(١) أبى حامد الغزالى ، المنقذ من الضلال ، تحقيق محمد محمد جابر ، مكتبة الجندي ، ص ٢٧ .

الفلاسفة أن العالم من الله تعالى كالمعلول من العلة يلزم لزوما ضروريا لا يتصور من الله تعالى دفعه كلزوم الظل من الشخص ، والنور من الشمس ، وليس هذا من الفعل في شيء ... ولكن الفاعل لم يسم فاعلا صانعا لمجرد كونه سببا ، بل لكونه سببا على وجه مخصوص ، وهو وقوع الفعل منه على وجه الإرادة والاختيار" (١).

وتحديد الإرادة والاختيار سمتان ذاتيتان للفاعل يخرجان فعل كل موجود لا إرادة له من دائرة الفعل الحقيقي ليكون فعله على سبيل الاستعارة والمجاز كفعل الإحراق للنار ، وفعل القطع للسيف وفعل التبريد للثلج ، كل ذلك مجاز لان الفعل الحقيقي إنما يكون بالإرادة والاختيار و العلم . والله عند أفلوطين لا علم له ولا إرادة ، إلا انه عالم بعلم كلي عند ابن سينا والفارابي . وذلك ما يراه الغزالى زيغاً وضلالاً ، لأن الكل أو العالم عند الفلاسفة لم يوجد من الله تعالى دفعة واحدة ، بل **بالوساطة والتولد واللزوم** والذي يصدر ممن يصدر منه ( أى من الله ) لم يبغ أن يكون معلوما لله " (٢).

كما يرى الغزالى أن الفعل قسمان : **إرادي** كفعل الإنسان والحيوان ، وفعل **طبيعي** كفعل الشمس في الإضاءة ، والنار في التسخين والماء في التبريد . ويلزم العلم بالفعل الإرادي ، وأما في الفعل الطبيعي فلا ، وعند الفلاسفة الله فعل العالم بطريق اللزوم عن ذاته بالطبع والاضطرار لا بالإرادة والاختيار ، بل لزم الكل عن ذاته كما يلزم النور الشمس ، وكما لا قدرا للشمس على كف النور ، ولا النار على كف التسخين ، فلا قدرة للأول على الكف عن أفعاله ، وهذا النمط وإن تجوز بتسميته فعلا ، فلا يقتضي

---

(١) أبي حامد الغزالى ، تهافت الفلاسفة ، تحقيق سليمان دنيا ، دار العارف مصر ، الطبعة الخامسة ، ص ١٣٥ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٢٠١ .

علمـــا للفـــاعل أصلاً " [1]. ومتى تحدد الفعل الحقيقي بالإرادة والعلم وصار الفعـــل الطبيعي فعلا على سبيل المجاز لا الحقيقة ، صار " الاقتران بين ما يعـــتقد في العادة سبباً وبين ما يعتقد مسبباً ، ليس ضروريا ، كل شيئين ليس هذا ذاك ، ولا ذاك هذا ، ولا إثبات أحدهما متضمنا لثبات الآخر ، ولا نفيه متضـــمن لنفى الآخر ، وليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر ، مثل الري والشرب ، والشبع والأكل والاحتراق ولقاء النار ، والنور وطلوع الشمس والموت وجز الرقبة والشفاء وشـــرب الـــدواء ، وإســـهال البطن واستعمال المسهل وهلم جرا . إلى كل المشـــاهدات مـــن المقترنات في الطب والنجوم والصناعات والحرف . فإن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه وتعالى يخلقها على التساوق لا لكونه ضرورياً في نفسه ، غير قابل للفوت ، بل فى المقدور خلق الشبع دون الأكل ، وخلق الموت دون جز الرقبة ، وإدامة الحياة مع جز الرقبة وهلم جرا إلى جمـــيع المقترنات " [2]. فالله تعالى قادر على كل شيء ، وليس من ضرورة الفرس أن يخلق من النطفة ولا من ضرورة الشجرة أن تخلق من شيء فلعله خلق أشياء لم يكن لها وجود من قبل [3] .

كما يرى الغزالى أن التسليم بالأسباب والمسببات ينتهي إلى التسليم بما يناقض الشرع . " لأن الأسباب والمسببات ينبغي أن تطرد وتتكرر إلى غير نهاية حتى يبقى هذا النظام الموجود في العالم بالتولد والتوالد إلى غير نهاية ، .. فـــإن أجاز الفلاسفة استمرار التوالد والتناسل بالطريق المشاهد الآن أو عـــود المـــنهاج ولو بعد زمن طويل على سبيل التكرار والدوام ، فقد رفعوا

---

(1) نفس المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

(2) نفس المصدر السابق ، ٢٣٩ .

(3) نفس المصدر السابق ، ص ٢٤٤ .

القيامة والآخرة " [1]. ولهذا يصف الغزالى الفلاسفة بالزندقة ، لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، والفلاسفة يسلمون بالأسباب والمسببات وما يلزم عن ذلك ضرورة هو جحد اليوم الآخر . ولذلك يصدر الغزالى حكمه بالقطيعة مع الفلسفة والفلاسفة ويصف كافة الفلاسفة بالكفر ، على حد تعبيره في المنقذ من الضلال في فصل مطول تحت العنوان " أصناف الفلاسفة واتصاف كافتهم بالكفر " [2]. وإصدار الحكم على كافة الفلاسفة هو في المنطق حكم كلى ، ومن ثم شامل الدهريين والطبيعيين والإلهيين ، ومن اليونان والمسلمين فالقطيعة مع الفلسفة واجبة من وجوب " وجوب تكفير الفلاسفة وتكفير متبعيهم من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابي وغيرهما على إنه لم يقم بنقل علم ارسطاطاليس أحد من متفلسفة الإسلاميين كقيام هذه الرجلين " [3].

## رابعاً : موقف العصر الحديث استمرار القطيعة :

كان في نقد الغزالى للفلاسفة المسلمين قضاء على الفكر الفلسفي في العالم الإسلامي ، وموقف الغزالى ما هو إلا تنظير لحركة قوى اجتماعية في الواقع الإسلامي، ولو كان الأمر خلاف هذا لما أجهضت فلسفة ابن رشد في بلاد الأندلس بعد مائة عام من الغزالى . واستمر الصمت يخيم على الواقع الفكري وتجسدت القطيعة واقعا ما يقرب من تسعة قرون من الزمان حتى كان مجيء الحملة الفرنسية ، واعتلاء محمد على عرش مصر ، وإرساله البعثات إلى فرنسا لبناء الدولة الحديثة ، فكان التلاقي مرة أخرى مع الفكر الفلسفي . ولكن هل كان اللقاء لقاء التواصل ، أم لقاء التعارف ؟

---

(1) الغزالى ، تهافت الفلاسفة ، ص ٣٠٤ .

(2) أبى حامد الغزالى ، المنقذ من الضلال ، مكتبة الجندي ، ص ١٨ .

(3) أبى حامد الغزالى ، المنقذ من الضلال ، مكتبة الجندي ، ص ص ٢١ ، ٢٢ .

تلـك هـى القضية موضع النظر من خلال يوسف كرم ، ونجيب بلدي باعتبارهما من الرعيل الأول في مدرسة الإسكندرية في العصر الحديث .

**( أ ) يوسف كرم واستمرار القطيعة :**

وموقف يوسف كرم أهو اتصال أم استمرار للقطيعة ؟ هو ما يبين لنا من موقفه من الفارابي وابن سينا من جانب ، الغزالي من جانب آخر . وهو موقف يبدو فيه مناصرا للغزالي ضد ابن سيناء والفارابي على نحو ما ورد فى كتابه " الطبيعة وما بعد الطبيعة " ، ولكن " كتاب العقل والوجود " يجعل هـذه المناصـرة ليست تامة ، فللعقل دوره عند يوسف كرم وهو قادر على أدراك الوجـود بالإطلاق ، إدراك ما وراء الطبيعة ، وهو ما ينفيه الغزالى عن العقل .

ويسـمى يوسـف كـرم مذهبه " العقلي المعتدل " ، ويصفه " باليقـين والإيمـان " ، أي مذهـب يؤمن بالوجود ويرى العقل قادرا على تعقله " [1] والـتجريد واسطة بين العقل والوجود " [2] ليرتقى العقل من المحسوس إلى المعقـول ، من الموجودات الطبيعية التي هى موضوع العقل بما هو إنساني إلـى الوجـود المطلق الذي هو موضوع العقل باعتباره عقلاً مطلقاً يجاوز الطبيعـية المحسوسة فيمتد إلى مطلق الوجود ، وعلم ما بعد الطبيعة هو علم مطلـق الوجـود ، علـم إثبات وجود الله وصفاته وأفعاله . ومن ثم بطلان الأحادية أو وحدة الوجود لازم ، بينما تسبيح وتمجيد الدين واجب .

والأحاديـة هـو أشنع المذاهب الفلسفية هو أشنع من الإلحاد ، ويصف يوسـف كـرم أفلوطين والفارابي وابن سينا بمذهب الأحادية . وعلى نقيض

---

(١) يوسف كرم ، العقل والوجود ، دار المعارف ، ص ١١ .

(٢) يوسف كرم ، نفس المصدر السابق ، ص ١٧ .

الأحاديـــة يـــرى يوسف كرم الله موجود حق وشخص حق ، والبرهنة على وجود الله ليس معضلة ، بل الحقيقة أيسر البرهانات : برهان من الحركة إلى محـــرك ثابت ، برهان من النظام إلى منظم ، برهان من الممكن الوجود إلى واجـــب الوجود . وتنتهي بنا جملة البراهين إلى صفات الله وهى طائفتان ، وصـــفات الذات وصفات الفعل . وصفات الفعل هى التي يدور حولها الجدل بيـــن يوسف كرم أفلوطين والفلاسفة المسلمين . " وليس لله عند يوسف كرم ســـوى فعل واحد ، يشتمل جميع الأفعال ويتضمن جميع المفعولات . ترجع الأفعـــال الإلهية إلى العلم والإرادة ، تلحقها القدرة والحرية ، ويلحق القدرة الخلق والعناية ، كلها يتبع بعضها بعضا ، وكلها فعل واحد ، ومقولاتها هى المتنوعة " [١]. لذلك يستنكر يوسف كرم أن يجرد أفلوطين الله من كل علم ، ويكـــرر ما سبق أن قاله الغزالى في نقده لأفلوطين والفلاسفة المسلمين " أن الله خـــالق الأشـــياء ولا بـــد أن يكون لها وجود سابق في عمله ، وإلا كان صـــدورها عنه صدورا آليا بحتا ، وفوق ذلك الله خالق لكائنات عاقلة فكيف يكون لهما علم ، ولا يكون لله خالقها علم " ؟ [٢] وعلى النقيض من أفلوطين الله عالم ، وعمله ليس كليا على نحو ما يقول ابن سيناء والفارابي ومادام الله عالمـــا أذن لله إرادة ، فإن العاقل مريد ضرورة ، والإقرار لله بالحرية لازم لـــزوما منطقيا عن الإرادة . لذلك يقرر يوسف كرم أن كل مذهب يأبى العلم على الله كمذهب أرسطو وأفلوطين وابن سيناء ، هو مذهب هدام للدين " [٣].

الله خالق أخص خاصة لله بالنسبة إلى العالم . تلك هى أنه موجد لغيره خالق لا من شيء ، وبذلك يستبعد يوسف كرم نظرية الفيض أو الصدور كما

---

(١) يوسف كرم ، الطبيعة وما بعد الطبيعة ، دار المعارف ، ص ١٥٩ .

(٢) يوسف كرم ، نفس المصدر السابق ، ص ١٦١ .

(٣) يوسف كرم ، نفس المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

جـــاءت عند أفلوطين وابن سينا والفارابي ، ومبررات الاستبعاد عند يوسف كرم عديدة :

**أولاً** :مبـــا يصـــدر عـــن الذات صدورا ضروريا على ما يصف أفلوطين وابـــن سيناء والفارابي فهو مثل الذات إلهيّ بجميع الصفات الإلهية ، وليس كمثل الله شيء .

**ثانياً**: مـــن شأن الموجود والبسيط الواحد كل الوحدة كالله أن يصدر عنه واحـــد فقط ، كما يقول ابن سينا ، فإذا صدرت عنه كثرة كانت دليلا على تكثر ذاته ، ولقد كان يصدق ابن سينا لو كان الله فاعلا بالطبع فقـــط ، فـــإن كـــل فعل يصدر طبعا هو فعل شبيه بالفاعل لضرورة طبـــيعة الفاعل ... ولكن الله يفعل بالإرادة أيضا ، والإرادة متصلة بـــالعقل والعقل يمثل معاني كثيرة ، فالله يفعل بما يشاء من المعاني التي يعلمها .

**ثالثاً**: استحالة ما يقرر أن من صدور الموجودات بعضها عن بعض ، لأن المخلـــوق اعجـــز مـــن أن يمنح الوجود ، ووجوده نفسه مستعار ، والخلـــق عـــبور مسافة من اللاوجود إلى الوجود ، وهذه مسافة لا متناهية والمخلوق متناه .

**رابعاً**: أي مناســـبة بيـــن كونه ( العقل المخلوق المدعى له بالخلق ) ممكن الوجـــود وبيـــن وجـــود فلك منه على حد قول الغزالى ، وعلى هذا القياس نقول أي مناسبة بين كونه واجب الوجود بالأول ووجود عقل منه ؟ وأي مناسبة بين كونه واجب الوجود بالعقل الذي قبله ووجود

نفـــس فلكلية منه ؟ على أي وجه قلبنا هذه النظرية وجدناها فلسفة لا تفسر صدور الموجودات ، بل لا تفسر نفسها " [١].

واستبعاد نظرية الصدور يلازمها استبعاد الضرورة عن قوانين الطبيعة ، فالقوانينُ غير ضرورية الوجود إنما هى ممكنة ، لأن الموجودات الطبيعية أنفســها ممكــنة الوجود وعدمه ، والقوانين خصائص لها وأغراض وقواعد لأفعالها متوقفة على شروط وظروف هى ممكنة التحقق وعدم التحقق ، وهذا بـــاب مفتوح للمعجزات فإذا شاء الله ألغي أثر النار فلم تحرق ، ولا تناقص في وقت العرض ، وإذا شاء شفى المريض دفعة ، والشفاء حادث طبيعي ، لكن الشفاء دفعه ليس طبيعيا ، فهو يتطلب تدخلا من الله لا يصاحبه ولا يلزم عــنه تــناقص أو إلغاء قانون ، وبهذا المعنى جميع القوانين ممكنة ، أو هى ضرورية بضرورة شرطية متى توفرت لها شروطها وظروف الشروط "[٢].

وبهذا امتد يوسف كرم بجسر القطيعة التي الغزالى مع فلسفة الفعل عند أفلوطيــن وابن سيناء والفارابي ، وإن كان يوسف كرم يختلف عن الغزالى منهجا ومذهبا إلا أن ما ينتهيان إليه هو التوافق أو الاتفاق ، سواء من حيث الفعــل الإلهي أو الفعل الطبيعى، والتوافق مردود إلى إعلاء كلمة الدين في المذهبين فوق كلمة العقل ، وذلك على النقيض من أفلوطين والفارابي سيناء . فكــان يوسف كرم نموذجا من العصر الحديث يمثل استمرار القطيعة من فلسفة الفعل عند أفلوطين ولا يمثل السعي إلى التواصل .

**(ب) نجيب بلدي :**

---

(١) يوسف كرم ، الطبيعة وما بعدها ، ص ١٦٧ .

(2) يوسف كرم ، الطبيعة وما بعد الطبيعة ، ص ١٨٨ .

أمـــا نجيب بلدي فهو يؤرخ لفلسفة الإسكندرية ، وأن التأريخ من حيث الشـــكل يبدو تواصلا ، إلا أن مضمون ذلك التأريخ لا يفصح أو يكشف عن موقف بلدي بصراحة مما يجعل التمييز بين التواصل والانقطاع عنده صعبا هـــذا مـــن جانب ، ومن الجانب آخر فان حديثه منصب على المناخ الفلسفي الـــذي تكونت فيه عقلية أفلوطين الفلسفية وليس على فلسفة أفلوطين ذاتها . لذلك يؤكد بلدي على التميز بين " مدرسة الإسكندرية " و " فلسفة الإسكندرية " ، والأولى لديه أعم من الثانية لوجود المتحف والمعهد والمكتبة وهم مظاهر لمشـــروع حضـــاري ونهضـــة وعلمـــية تمهـــيدا لحكمة جديدة هى " فلسفة الإسكندرية " التي كان أفلوطين ممثلا لها .

ويجعل بلدي مهمة كتابه " تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها " ، الكشـــف عـــن جذور ومصادر المذاهب الفلسفية التي ظهرت وشكلت فلسفة الإسكندرية في القرن الأول والثاني الميلادي ، كالأفلاطونية ، والهرمسية ، والغنوصية ، وفلسفة فيلون ويقرر أن جمعيها له تأثير في فلسفة أفلوطين من خـــلال تعلمـــه الفلسفة على يد أميونيوس سكاس في القرن الثالث الميلادي بالإسكندرية .

ويحـــدد بلـــدي مصـــادر فلسفة الإسكندرية بالفلسفة اليونانية . ويرجع الفضل في ذيوعها وانتشارها إلى الإسكندر مؤسس مدينة الإسكندرية ، والتي أصـــبحت بعـــد وفاته مركز لتحول معنوي روحي . اتخذ مساره من العقل الـــنظري إلى العملي ، إلى الفلسفة الدينية ، فجاءت الإسكندرية طورا عجيبا اختلطت فيه الفلسفة بالدين ، وتسرب الفكر الفلسفي المشبع بالدين إلى العلم . وتدخـــل فـــي مجاله تدخلاً تدريجياً كان من شأنه أن أضعف شيئاً فشيئاً من

صفات العلم ، ثم من صفات التفكير الفلسفي ذاته " [1]، ولهذا التحول جذوره التي يبدأ من محاولة أفلاطون إنشاء دين عالمي ، وتحوله من مرحلة معرفة الله بتطهير النفس من أدران البدن وسلطان الحس والخيال ... إلى موقف إيجابي يحاول فيه معرفة الإله ابتداء من العالم ذاته من غير إنكار لخصائصه من تغير وحركة ، وهو موقف يحاول إنشاء دين عالمي . وقد جاء أرسطو بعد أفلاطون يؤيد معنى هذا الدين الفلكي السماوي ويمهد بذلك لمدرسة الإسكندرية وأفلاطونيتها . كما مهد الاسكندر بفتوحاته إلى التحول الفكري والعملي الذي سينتهي إلى فلسفة الرواقيين في المدينة العالمية ، والدين العالمي ، وتلك الفلسفة آثارها واضحة في مدرسة الإسكندرية " [2].

ويتساءل بلدي لماذا سميت فلسفة أفلوطين باسم مدرسة الإسكندرية ؟ وهو يحاول الإجابة بكشف العلاقة بين أفلوطين والإسكندرية ، ويرى أنها علاقة تعلم على يد أمونيوس سكاس الذي أخذ عنه أفلوطين الطريقة المثلى لدراسة أفلاطون وشرح فلسفة ويرى بلدي أن التساعيات دليل على ذلك . كما كان لفيلون اليهودي السكندري " ( توفى ٤٠ م ) ومؤلفات الهرامسة نصيب في التمهيد لفلسفة أفلوطين ، وهما دليل على قيام تعليم فلسفي بالإسكندرية وقت أفلوطين وقبله ، وأنه أفاد من هذا التعليم ، ويعرض بلدي لآراء فيلون ويرى أنها باختصار " العمل على التوفيق بين الإيمان والفلسفة الأفلاطونية " ، وعلى التعبير بلغة الفلسفة الأفلاطونية عن الإيمان الديني" [3] لتنتهي الفلسفة عند فيلون إلى التصوف والرؤية ، وهذا ما نجده بالضبط عند أفلوطين الذي درس الفلسفة بالإسكندرية واعتنق فيها الأفلاطونية ووجه

---

(١) نجيب بلدي ، تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها ، دار المعارف ، ص ٤٧ .

(٢) نجيب بلدي ، نفس المصدر السابق ، ص ٦٣ ٦٧ .

(٣) نجيب بلدي ، نفس المصدر السابق ، ص ٨١ .

الفلسفة نحو التأمل والرؤية وجعل الرؤية قوام فلسفته ذاتها " [1] ، بينما الهرامسة حاولوا إنشاء فلسفة دينية إلاهية تحت لواء الأفلاطونية وبإلهام منها ووجهوا الفلسفة نحو التصوف والرؤية وجاء تفكيرهم غير مؤمن بدين من الأديان ومحاولتهم هذه أقرب من محاولة فيلون إلى فلسفة أفلوطين الذي أقام فلسفة كاملة بعوامل من التفكير الفلسفي اليوناني وحده .

وهذا هو تفكير مدرسة الإسكندرية في القرن الثاني الميلادي قبل الوقت الذي قام فيه أميونيوس سكاس بتعليم الفلسفة ، وكان أفلوطين تلميذه البارز .

وبهذا يبدو موقف بلدي في كتابه " تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها " ، وهو موقف المؤرخ العارض لا موقف التواصل ، فالتواصل التزام أمام العقل ، وإعلاء كلمته فوق كلمة الدين ، وذلك في ظني غير وارد عند بلدي في كتابه " تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها " . ولكن وردت فقرة أشار فيها إلى التناقض بين الدين والعلم ، والدين والفلسفة ، فيقول " تسرب الفكر الفلسفي المشبع بالدين إلى العلم وتدخل في مجاله تدخلاً تدريجياً ، كان من شأنه أن أضعف شيئاً فشيئاً من صفات العلم ، ثم من صفات التفكير الفلسفي ذاته "[2] وبذلك فقد أشار إلى الإشكال فقط دون تقرير لموقف .

---

[1] نجيب بلدي ، تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها ، دار المعارف ، ص ٨٧ .

[2] نجيب بلدي ، تمهيد لتاريخ من مدرسة الإسكندرية وفلسفتها ، ص ٤٧ .

**خامساً : الخاتمة :**

لقـد أفضى البحث في قضية " التواصل والانقطاع مع فلسفة الفعل عند أفلوطيـن " إلـى إظهـار التناقض بين الفلسفة والعقائد الدينية التي أرسلت القطعية ورفضت التواصل . فهل يمكن تجاوز هذا التناقض وتحقيق التواصل الفلسفي من جديد ؟

تلك هي القضية ، ولكن كيف ؟